

المملكة الأولى

دمشق

دمشق

الممالك الشامية : أكبر مدنها دمشق، والشام، حدّها من الفرات إلى العريش طولا، ومن جبل طىء إلى بحر الروم عرضًا، قاله فى آثار العباد^(١).

وقيل : قطر الشام من العريش إلى بالس^(٢) : وقيل : إلى الفرات.

وقال السمعاتى : هى بلاد ما بين الجزيرة والغور إلى الساحل^(٣). ويجوز التنكير والتأنيث والهمز، وتركه، وأما شام، بفتح الهمزة فيأباه أكثرهم فى النسب، قاله فى المحاسن الشامية، وقاله ابن حبيب الحلبي فى كتابه تشنيف المسامع فى وصف الجامع، فتذكر .

وأما دمشق فهى : فى دجنة^(٤) الدنيا كاليمامة، وفى البلاد كالطاوس أو طوق الحمامة، وفى دائرة الأقطار كالنقطة المعلمة، وفى جيوش الامعان كالملك، الذى ينطق بالحكمة، وفى قلادة الأقاليم كالواسطة، وفى سماء الممالك كالشمس التى بدت أشعتها فى الوجود باسطة، وهى المعدودة من جملة مدائن الجنة.

قد اشتملت على الماهرين الأهله من أرباب الكتاب والسنة، وهى المعروفة بإرم ذات العماد، والموصوفة بالتى لم يُخلق مثلها فى البلاد.

ووصفها الدمامينى^(٥) المالكى الإسكندرى، فقال : فتأملها، فإذا هى ربوة ذات قرار ومعين، وبلدة تبعث محاسنها الذكر على أحسن وصف وتعيين، وما أحسن جامعها الشارق فيها وفى سواها، والأنهار التى إذا ذكرت، قيل : ما أجزاها، وإذا سمع الحديث الحضب، قيل : ما أرواها، وما أقول إلا منزهات مصر^(٦) عارية، وهذه ذات الكسوة، وإن النيل^(٧) ما اخترق من الأمور إلا من

(١) انظر : آثار العباد، للقرزوينى ص ١٩٥ .

(٢) بالس : بلدة بالشام بين حلب، والرفة. انظر معجم البلدان (١/٣٩٠) ومعجم ما استعجم (٢٢٢).

(٣) انظر : الأنساب للسمعاتى (٣/٣٨٦) .

(٤) الدجنة : الظلمة. انظر : لسان العرب، مادة [دجن] .

(٥) الدمامينى، هو : محمد بن أبى بكر بن عمر بن أبى بكر بن محمد القرشى المخزومى، الإسكندرى، المالكى، بدر الدين، أديب، ناثر، نحوى، عروضى، فقيه، له شرح مغنى اللبيب، توفى سنة (٨٢٧هـ) انظر : شذرات الذهب (٧/١٨١) معجم المؤلفين (٣/١٧٠).

(٦) مصر : الدولة والقطر المعروف، جاء بها للمقارنة ولتفضيل الشام عليها، لأنها (مصر) كان يضرب بها المثل فى الجمال ومنتزهاتها.

(٧) النيل: نهر مصر، أطول أنهار العالم وأعظمها، غنى عن التعريف.

حيث لم يعقه الدهر بالصعود إلى تلك الربوة، ولا ناله الكسر إلا لتألمه بالانقطاع عن الوصول إلى شقوق أنهارها، ولا أظنه أجمر خجلاً إلا بصفاء أنهارها، فلو رأى العاشق جبهيتهما لسلمى بمصر معشوقه، ونسى ظهور جوانبه المنحنية بقامات غصونها الممشوقة، فحق لمصر لا تجرى حديث المفخرة في وجهها، وأن يبقى أثر المنازعة قبل أن تصاب من هذه البلدة بسهمها، ولطال ما انتهرت لجنكها^(١) الباطن على السماع، وترى كل نهر أذاب عقد الجليد مما انعقد على حلاوة يكن الإجماع.

وما أحسن قول القيراطي^(٢) :

أَوْ جَدُولٍ أَوْ رِبْرِيبٍ	مَا فِيهِ إِلَّا جَوْسِقٌ أَوْ رَوْضِيَّةٌ
فِي الْحَالِ بَيْنَ رِيَاضِهِ يَتَشَعَّبُ	وَإِذَا تَكَسَّرَ مَاؤُهُ أَبْصُرَتْهُ
بِقَنَايَهِمَا مَا غَابَ عَنْهُ الْمَطْرِبُ	وَشَدَّتْ عَلَى الْعِيدَانِ وَرَقِ أَطْرِبَتْ
وَالنَّهْرُ يُسْقَى وَالْحَدَائِقُ تَشْرَبُ	فَالْوَرَقُ تَشْذُو وَالنَّسِيمُ مَشْبَبٌ
أَضْحَى لَهُ مَنْ بَيْنَنَا مُتَطَلِبُ	وَضِيَاعُهَا ضَاعَ النَّسِيمُ بِهَا فَكَمْ
وَعَدَا بَرِيوَتُهَا اللِّسَانُ يَشْبَبُ	وَلَكَمْ طَرِبَتْ عَلَى السَّمَاءِ لَجْنِكُهَا

ولبعضهم :

كُلُّ مَا تَشْتَهَى وَمَا تَخْتَارُ	نَزَهَ الطَّرْفَ فِي دَمَشَقٍ فِيهَا
كَيْفَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ	هِيَ فِي الْأَرْضِ جَنَّةٌ قَامَلُ

والحافظ أحمد المقرئ المؤرخ المحدث^(٣) :

كَأَنَّهَا مُعْجِزَةٌ مَقْرُونَةٌ بِالتَّحْدِي	الشَّامُ جَنَّةٌ لَا تَقَاسُ بِحَدِّ
--	--------------------------------------

(١) الجنك : آلة طرب فارسية. انظر: القاموس المحيط، مادة [جنك].

(٢) القيراطي، هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر بن مظفر بن نجم بن شادي بن هلال، برهان الدين، أبو إسحاق، من الشعراء الأديباء، من مصنفاته: ديوان شعر، اسمه: مطلع النيرين، أب الوشاح، توفي سنة (٧٨١هـ). انظر: الدرر الكامنة (٣١/١)، شذرات الذهب (٢٦٩/٦).

(٣) أحمد المقرئ، هو: ابن اسماعيل بن عبد الله بن محمد بن حامد البغدادي، شمس الدين، فقيه، شاعر، عالم بالعربية، له كتاب في التاريخ، عاش في القرن الثامن الهجري. انظر ترجمته : الدرر الكامنة (١٠٦/١). معجم المؤلفين (١٠٤/١).

ومن قول ابن الساعاتي^(١) :

لولا صدودك يا أمّحة ما لبثت أتدب عهد رامة
ابكي ليالى غبطة كانت لخد الشام شامة

فتأمل كيف أطلق الشام على لياليه التي مرت من بين الليالى كلها، واستطابها من بين الليالى كلها.

قيل^(٢): بناها العاذر، غلام إبراهيم عليه السلام، قاله : وهب، وكان خادماً لنمرود، فوهبه له.

وفي عيون التواريخ^(٣) : بناها غلام الإسكندر، واسمه: دمشق لما نزل عقبة دمر حين فرغ من السد وأهل خراسان وراء للنهر وغيضه؛ فأمر بالعمارة ونزل الأمين موضع العمارة، والإسكندر في موضع يقال له: الأرب^(٤) بلذا، وهى من الغيظة الأرز، على أربعة أميال، ثم أمره بقطع الشجر والأرمان، الكائن حول النهر فى الوادى، وأمره بالبناء، وسميت باسم غلامه، وعمل لها ثلاثة أبواب: البريد، وجيرون، والفراديس، وخارجها : المرعى، والزروع، ثم سكن بها دمشق إلى أن مات فيها، انتهى. من عيون التواريخ^(٥).

قال للجوهري^(٦): دمشق القديمة، وتُجمع على دماشق، وقيل: بناها اليونان، وقسموا الأنهار، وسلكوا الماء إلى الدور، وبنوا المعبد، وقبلته كانت جهة الشمال

(١) ابن الساعاتى، هو: أحمد بن على بن ثعلب بن أبى الضياء الحنفى، البعلبكى، البغدادى، فقيه، أصولى من الأدياء، له الدر المنضود فى ترد على فيلسوف اليهود. توفى سنة (٦٩٤هـ) انظر: كشف الظنون (٢٣٥، ٧٣٤، ١٥٩٩) معجم المؤلفين (١/١٩٩).

(٢) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/١).

(٣) صاحب عيون التواريخ، هو: محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن، لكتبى، لدارقى، الدمشقى، من علماء التاريخ، والأدياء، اشتغل بتجارة الكتب، من مصنفاته: فوات الوفيات، توفى سنة (٧٦٤هـ) انظر: الدر الكامنة (٤٥١/٣) شذرات لذهب (٢٠٣/٦).

(٤) الأرب : من قرى دمشق. انظر: معجم البلدان (٥٠٤/٥) وتاريخ دمشق (١/١٦).

(٥) انظر: عيون التواريخ (١/١٢٢)، تاريخ دمشق (١/١٥).

(٦) الجوهري، هو: إسماعيل بن حماد، الفارابى، أبو نصر، أحد أعلام اللغة، أديب، من مؤلفاته: الصحاح فى اللغة، المقدمة فى النحو، توفى سنة (٣٩٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/١١) معجم الأدياء (٦/١٥١).

جهة القطب، وبابه؛ وهو خلف محراب المقصورة إلى الآن، وهو حسن، مبنى بالحجارة المنحوتة، وعن يمينه وشماله بابان صغيران بالنسبة إليه^(١).

وقيل : عاد، وقيل : وولده معد، وقيل : له ولدان : جيرون، والآخر : يزيد، وبنى لهما القصرين المشهورين؛ الأول : غربى الجامع، والثانى : شرقيه، ولا مانع من تكرار التجديد، أو وقوع الأحداث شيئاً بعد شيء .
وقيل : بنته الجن لسليمان عليه السلام.

(١) انظر: الصحاح، مادة [دمشق] .

فصل

أبواب دمشق

وأما أبوابها : فسبعة :

الأول : الصغير. وهو الذى نزل به يزيد بن أبى سفيان^(١) حين حصارها، وهو القبلى.

الثانى : الجابية.

الثالث : كيسان؛ وهو قبلها من شرقيه، وينسب إلى كيسان^(٢) مولى معاوية، لنزوله عليه، والآن مسدود.

الرابع : باب شرقى؛ لأنه شرقى الباب، وعليه نزل خالد بن الوليد^(٣)، وتوما^(٤) اسم لصاحبه.

الخامس : الجنسق، منسوب لصاحبه.

ويليه السادس : الفراديس محلة كانت خارجة عنه، والفراديس : البستان.

ويليه السابع : -أعنى باب الجابية- منسوب إلى قرية الجابية، وكانت فى الجاهلية مدينة عظيمة.

وباب الجابية : كان ثلاثة أبواب : صغيران، وكبير، والشرقى مقابله كذلك.

وكان للثلاثة أبواب: ثلاثة أسواق من شرقى الجابية : الأوسط للمشاة.

والواحدة : لمن يغرب بدابته، والآخر : لمن يغرب حتى لا يلتقى راكبان.

(١) يزيد بن أبى سفيان، هو: ابن معاوية بن أبى سفيان، الأموى، ثنى خلفاء بنى أمية، توفى

سنة (٦٦٤هـ) انظر: تاريخ الطبرى، حوادث سنة(٦٤هـ)، تاريخ الخميس (٢/٣٠٠).

(٢) كيسان مولى معاوية، يروى العلم عن معاوية بن أبى سفيان. انظر: تاريخ دمشق

(٥٠/٢٧٩)، التاريخ الكبير للبخارى (٧/٣٣٤).

(٣) خالد بن الوليد بن المغيرة، المخزومى، سيف الله، الفاتح، الصحابى، أسلم قبل الفتح،

القائد الذى لم يهزم، صاحب الفتوحات. انظر: الإصابة (١/٤١٣) صفوة الصفوة

(١/٢٦٨).

(٤) انظر: معجم البلدان (١/٣٦٤).

والسلطان نور الدين^(١)، فتح بابًا آخر، يسمى : باب السلام، وآخر يقال له :
باب الفرّج.

قال ابن عساكر : وكان قربه بابٌ يسمى : باب العمارة، فتح عند عمارة
القلعة، وأثرم باقٍ إلى يومنا هذا.

والأبواب في هذا التاريخ^(٢) : باب الفرّج، وباب السلام، وباب النصر، وباب
توماء، وباب الجابية، وباب الفراديس، وباب الجنسق، وباب كيسان، وهما مردومان.
وأول من بنى القلعة : أفنس رادن.

وأحدث الأروام : باب الجديد، بالجيم، والعامّة تقول : باب الحديد بالحاء،
ويليه باب السر، وهو الغربي وهو مسدود باقٍ إلى الآن، وسمى باب السر؛ لأنه
اصطُح في دولة ابن قلاوون^(٣) أن من يلي نيابة الشام يصلّي ركعتين مستقبل
القبلة، بحيث يبقى الباب عن يساره، وتقف أجناد القلعة، وأرباب الوظائف على
منازلهم، متحملين بالسلاح إلى الفراغ من صلاته ودعائه؛ فإن أريد به شرٌّ
قبض عليه، ودخلوا به من ذلك الباب، ويعلمون الخبر بينه وبين أعوانه؛ فإن
الجرس بلوالب^(٤)، وإن أريد به خيرٌ، طلع وركب في عترته^(٥) ودولته، إلى أن
يدخل إلى السرايا المسماة بدار الملك، وكان أنشأها السلطان نور الدين الشهيد،
وتسمى بدار العدل.

(١) نور الدين، هو : محمود بن زنكي، عماد الدين، أبو القاسم، الملقب بالملك العادل، ملك
الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو من أعدل ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم، بنى
المدارس، والخانات في الطريق، والخوانق للصوفية، حارب الصليبيين، وبنى الحصون
والقلاع، وكان مكرمًا للعلماء ينهض للقائهم ويؤنسهم ولا يرد لهم قولاً، وكان يتمنى أن
يموت شهيدًا، فمات بعلّة (الخوانيق) في قلعة دمشق سنة (٥٦٩هـ) فقيل له: الشهيد.
انظر: وفيات الأعيان (٢٨/٢) النجوم الزاهرة (٧١/٦) تاريخ ابن خلدون (٢٥٣/٥).

(٢) انظر: تاريخ دمشق (١٦/١) .

(٣) ابن قلاوون، هو : محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحى، أبو الفتح من كبار ملوك
المماليك، كانت إقامته في طفولته بدمشق وولى سلطنة مصر والشام، سنة (٦٩٣هـ)،
وخلع منها لحدائثه سنة، ثم أعيد إلى سلطنة مصر سنة (٦٩٨هـ) توفى سنة (٧٤١هـ)
انظر: النجوم الزاهرة (٤١/٨) والدرر الكامنة (١٤٤/٤) فوات الوفيات (٢٦٣/٢) .

(٤) اللولب : آلة من خشب، أو حديد، ذات محور. انظر : القاموس المحيط، مادة [لوب] .

(٥) العترة : أهل الإنسان. انظر: القاموس المحيط، مادة [عتر] .

وقيل : يسمى باب السر؛ لأنه كان يخرج منه ويدخل إليه سرًا على جسر من خشب، وتحته الخندق الدائر بالقلعة، وهو مقدار معلوم، وفيه تخرج البعض عمقه مقدار خمسين ذراعًا، والآن به أنواع الأشجار، والفواكه من الزروع لا يكن بدمشق أحسن منها، ولا أكثر منها، ولها نوع سبق، وهو غير خندق المدينة.

وأما باب النصر : ففتحها الملك الناصر أيوب^(١).

وهذه الخمسة الأبواب الحادثة فيما بين الجابية والفراديس، إلا باب السلامة، والفرج، فهما لنور الدين.

وفى الصور أبواب صغار تفتح أيام الحاجة، وغالب هذه الأبواب على كل واحد منارة، لنور الدين، على مساجد، وجعل عند كل باب باشورة، كأسواق بها حوانيت مملوءة بالبضائع، فإذا تحصنت المدينة، وقلت، تستغنى عن كل صائح لما عندهم.

وبنى معاوية^(٢) دار الإمارة، وهى قبلى الجامع، وسماها : الخضراء؛ أى القبة الخضراء، والذار الخضراء، وسكنها معاوية أربعين سنة.

وبالقلعة المحروسة : ضريح أبى الدرداء^(٣)، وبها جامع، وخطبة، ومنارة، من بناء الشهيد، وبها حمام، وطاحون، وحوانيت، وكان بها دار الضرب^(٤)، وبطل بعد الألف، والدور، والحواصل، وبها يمر النهر المسمى بعقرباء^(٥)، وبها آبار، وبها الطارمة^(٦) ليس على وجه الأرض أحسن منها،

(١) الملك الناصر أيوب، هو: يوسف بن أيوب بن شاذى، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي، من أشهر ملوك الإسلام، قاهر الصليبيين، صاحب معركة حطين، توفى سنة (٥٨٩هـ) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢٠/٨).

(٢) معاوية، هو : ابن أبى سفيان، صخر بن حرب بن أمية، كاتب وحى رسول الله ﷺ، أمير المؤمنين، مؤسس الخلافة الأموية، توفى سنة (٦٠هـ) انظر: الإصابة (١١٩/٦).

(٣) أبو الدرداء، هو: عويمر بن قيس بن زيد، الصحابي، حكيم الأمة، وسيد القراء بدمشق، توفى سنة (٣٢هـ) انظر: الإصابة (١٠٢/٧) .

(٤) دار الضرب : المكان الذى يصنع فيه الدراهم، انظر : القاموس المحيط، مادة [ضرب] .

(٥) انظر: معجم البلدان (١٥٣/٤).

(٦) الطارمة : بيت من خشب، كالقبة، انظر : القاموس المحيط، مادة [طرْم] ..

كأنها أفرغت بقالب من شمع، وهى شامى روس الحمال، ولعله ذات القباب،
والآن خرب منها، وهى على قدر الثلثين من طولها، قاله ابن المزلق^(١).

ويقال لها : السبع المبارك، والسبب : أن تيمورلنك^(٢) عجز أن ينقب تحتها،
وقطع الأشجار، وعلقها بالنقب حتى انتهى، فطلق النار فيما تحتها من الأخشاب،
وظن أنها تتفسخ بذلك، وتسقط شذر مذر، فيبلغ مراده من أخذ القلعة، فلما عملت
النار فيما تحتها، ركت^(٣) بصوت أزعج الموجودين ومن معهم، فسموها: السبع
المبارك، وعلى ذلك العمارية، عمارة سابقة أكلف من الموجودة، وأصنع، والله اعلم.

وبها البانياس^(٤)؛ للاستعمال والشرب، والآخر يخرج بالأوساخ.

وفيها : مصانع وأبار؛ للأمان من الحصار، وهو يصل إلى الخرار^(٥)،
ويُسقى منه القصب^(٦)؛ وهو أبيض، أملس كالرماح، مجوف لا عقد فيه، تصب
الماء من رأس الواحد يخرج من أسفلها، وقشره يعمل منه الخيوط والأحبال،
وجرمه يقطع فى يوم مخصوص بأدوات فى أطرافه لإيقاد النار، ويشعل به
المصابيح؛ لأنه سريع الاشتعال، وما أحسن ما شبهه بالبنفسج به أبو العتاهيه
بقوله^(٧) :

(١) ابن المزلق، هو عبد الله بن محمد بن أحمد، تقي الدين البدرى، المصرى، الدمشقى،
أبو البقاء، عالم بالتاريخ والأدب، من مصنفاته: نزهة الأنام فى محاسن الشام، المطالع
البدرية فى المنازل القديمة، توفى سنة (٨٩٤هـ). انظر: كشف الظنون (١/١٩٤١)،
معجم المؤلفين (٢/٢٧٤).

(٢) تيمور لنك، هو تيمور الأعرج، ملك المغول، حفيد جنكيز خان، اجتاح العراق وسورية،
وفتح دمشق وحلب، خرب بغداد، اتخذ (سمرقند) عاصمة له. انظر: عجائب المقدور
بأخبار تيمور، لابن عرب شاه.

(٣) ركت : طرحت بعضه على بعض، انظر : القاموس المحيط، مادة [رك] .

(٤) بانياس : نبع بانياس أحد روافد نهر الأردن. انظر: معجم البلدان (١/٣٩٣).

(٥) الخرار : المكان فيه أخاديد وماء. انظر: القاموس المحيط مادة [خرر].

(٦) القصب: هو قصب المكناس؛ نوع من فصيلة النجيليات، منتشر على ضفاف المستنقعات،
ومنه الصلْب، الذى يصنع منه المزامير، وتسقف به البيوت.

(٧) أبو العتاهية، هو: إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان، العنزى، أبو إسحاق، شاعر
الشعراء، وكبير الأدباء، لُقّب بأبى العتاهية؛ لاضطراب فيه، توفى سنة (٢١١هـ).
انظر: سير الأعلام (١٠/١٩٥).

ولازورد تزهمى بزرقتهها بين الرياض على حمر اليواقيت^(١)
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى لظى وكبريت

ويؤثر النار بما لقيت بسرعة، وهو يقوم مقام القاع، والمطل، إلا أنه أسرع فى الاشتعال. كما أن الشيخ بالمهملة أحسن من الحلفاء، يعرفه بالتركي، وأظنه من خواص دمشق .

ضرب النوبة :

ومن محاسن دمشق : ضرب النوبة^(٢)، آخر الليل، وبعد صلاة العشاء، وبعد صلاة العصر، وذلك باقٍ إلى الآن، ونوبة آخر الليل؛ منسوبه لخاتون الملكة أم السلطان الملك الظاهر بيبرس^(٣)؛ فإنه كان لها قيام فى آخر الليل، فنامت بعض الليالى عن تهجدها، فأصبحت وبها غيظ، فسأل الملك عنها، وعن شأنها فأمر النوبة كل ليلة تضرب آخر الليل بأمرها، ولسائر المتجهدين والصائمين.

وكانت قديمًا الطبول تضرب على أبواب المدينة، وأبواب الأمراء، فبقى إلى بعد الألف.

ومن محاسنها المنتزهة : الجبهة^(٤) : وهى أرض مربعة قدر فدانين، عليها شقائق تظلمها من غير طين بين شجر الصفصاف، والهور، والجوز، وكل

(١) اللازورد : معدن يتخذ للحلى، وأجوده الأزرق منه، انظر : القاموس المحيط، مادة [لزو] .

(٢) ضرب النوبة: هو وقت معلوم للناس ينبه عليه، بإحداث صوت عالٍ، من خلال آلة نفخ، أو ضرب على دفٍ كبير، أو ما شابه ذلك.

(٣) الظاهر بيبرس، هو: العلائى، البندقدارى، الصالحى، ركن الدين، الملك الظاهر، صاحب الفتوحات والأخبار، والآثار، كان مملوكًا لعلاء الدين، أيدكين، البندقدار، ثم للملك الصالح، نجم الدين أيوب، ولم تزل همته تصعد، ونجمه فى ارتفاع، حتى قاتل مع الملك المظفر قطز، ضد التتار، وتولى السلطنة من بعد أثر وشاية أدت إلى قتله الملك قطز، وكان حسن السيرة، توفى سنة (٦٧٦هـ) بدمشق. انظر: النجوم الزاهرة (٩٤/٧)، والسلوك (٤٣٦/١) وسير أعلام النبلاء (٧٩/٢) .

(٤) انظر : معجم البلدان (١٢٦/٢) .

منوس حصة يحتاط جدول الماء من أربع جهاته مع البركة، والبحيرات،
والنوافر، وهى على جنب نهر برديا^(١) وبه النواعير، وبه الحوانيت للشراكية^(٢)
والطباخين، والحزارية، والخوامرية، والأقسماوية، والفواكهية.

وبها : مسجد، ومدرستان، وخان، ومقاصفية^(٣) واقفة فى خدمة الناس،
وعندهم اللحف^(٤) والأوعية والطناجر^(٥)، والفرش، والمخاد، لمن يمكث
أو يبات.

وفيه يقول الحموى ابن حجة^(٦) :

لما ملأ الجبهة بالأنوارسية لمناه فى ذاك من خوف دم عار
فقال انصرفوا عنى ليس تسروا بأتما الجبهة منزل الأعمار
وفيه يقول أبو سعيد^(٧)، صاحب المرقص من المطربة : وقد رآها عند
شمس الأصيل قبيل المغرب :

إن للجبهة فى قلبى هوى ألووم الجميل
يرقص الماء بها من طرب ويميل الغصن للظل الظليل
وتوذ الشمس لوقامت بها فلذا تصفو أوقات الأصيل

(١) برديا أو (بردى) : نهر بدمشق، انظر : معجم البلدان (٤٤٩/١) .

(٢) الشراكية : الصيادون، يصنعون الشرك للطير. انظر : القاموس المحيط، مادة [شرك].

(٣) المقاصف، مفردا مقصف: محل الأكل والشرب واللهو. انظر: القاموس المحيط،
مادة [قصف].

(٤) اللحف: ما يلتحف به الإنسان عند النوم. انظر: القاموس المحيط، مادة [لحف].

(٥) الطناجر، مفردا طنجر: الإناء الممتلىء. انظر: اللسان، مادة [طنجر].

(٦) ابن حجة الحموى، هو: أبو بكر بن على بن عبد الله النقى، الحنفى، ولد ونشأ بحماة، من
الأدباء والشعراء، من آثاره: ثمرات الأوراق، توفى سنة (٨٣٧هـ). انظر: معجم المؤلفين
(٤٦٥/٢)، كشف الظنون (١٦٦/١).

(٧) أبو سعيد، هو فرح بن قاسم بن أحمد بن لب الثعلبى، الغرناطى المالكى الأندلسى، عالم
بالعربية، من الفقهاء، اشتغل بالتفسير، وعلم الأصول، توفى سنة (٧٨٢هـ) انظر :
الديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٢٠ شذرات الذهب (٢٨٠/٦) .

ولأبى سعيد الغرناطى قال^(١) :

خرجت إلى ظاهر دمشق للمنزرة المعروف بالجبة^(٢) فقلت مخاطبًا نور الدين
الأسودى^(٣) :

مولائى نور الدين أوحشتنى من دوحه الجبهه حيث النعيم
والغصن قد أقلق شوقاً إلى لقيائى لقيك واستملى حديث النسيم
والروض صلى عنده المقعد من بعلكم والمقيم
والنهر فيها ركضاً خيله من أشقر أو أشهب أو بهيم
أنا الذى لفرق داتماً فى كل وادى فى دمشق أهيم

ويتلو الجبهة نهران : البانياس، والقنوات المنحدر الماء إليها منهما، ومن فوق النهر حمام النزة بالربوة، وإلى جانبه مقصف لحوانيته فيها البضائع، والجسر بواسطة نهر القنوات، ويتوصل إلى زاوية الحريرى المشهورة، وليس بأبدع منها، وينحدر منها إلى المنزرة المسمى: بقطية، وهو مقصف مع نهر برديا، وعليه نواعير أرضية، يحلوا دل الماء، والبرك، والبحيرات، وبه قصبه، وحوانيت يعلوها أربعة طباق، ومربط للدواب .

وعند المقاصف العبر^(٤)، والقحف^(٥)، والانطاع^(٦)، حتى الأطباق والملاعق لمن يأكل، وهذا مما لا يوجد ببلاد غير دمشق .

(١) أبو سعيد الغرناطى، هو: فرج بن قاسم بن أحمد بن لب الثعلبى، المالكى، من علماء النحو، وأديب، وشاعر، من آثاره، شرح الجمل للزجاجى، الألفاظ النحوية، توفى سنة (٧٨٢هـ). انظر: الديباج، لابن فرحون ص(٢٢٠). معجم المؤلفين (٦١٧/٢).

(٢) الجبة، أو الجبهة؛ واحد. انظر: معجم البلدان (١٦٢/٢).

(٣) نور الدين الأسودى، هو: محمد بن زكى بن أفسنقر، أبو القاسم، الملقب بالملك العادل، أعدل ملوك زمانه، ولد فى حلب وكان من المماليك، وقد ملك الشام ومصر والجزيرة، حارب الصليبيين، وطردهم من الشام، كان يتمنى أن يموت شهيداً فمات بعله فى صدره فى قلعة دمشق سنة (٥٦٩هـ) لذلك قيل له الشهيد. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧٠/٧).

(٤) العَيْرُ: الجماعة من الناس، انظر: لسان العرب، مادة [عبر].

(٥) القحف: بناء من خشب. انظر: القاموس المحيط، مادة [قحف].

(٦) الأنطاع، مفرداً نطع: بساط من الجلد يفرش للطعام. انظر: القاموس المحيط،

مادة [نطع].

وقال الشمس بن المزلق فى (نزهة الأنام) أيضًا : أنشدنى القاضى عز الدين الكنانى الصالحى الحنبلى فيها^(١) :

ويا حُسْنُ سلسالٍ على مرجٍ قطية إذا ما جرى فيها نخوضٌ ونلعبُ
تهدده أغصاتها برؤوسها فينظرُ من طرفٍ خفى ويهربُ
ولابن عمارة الأندلسى رحمه الله تعالى^(٢) :

تهرّ يهيمُ بحسنه من لم يهيم ويجيدُ فيه الشعرُ من لم يشعرُ
فكأنه وكأن خضرة أرضه سيفٌ يسُلُ على بساطٍ أخضرُ

ومن منتزهاتها: المنتزة المسمى بالبهنسية، وهو روض يجتمع على أشجار وثمار، وينظر منه إلى مرجة جسر شواش، به مقاصير، وبيع، وشراء، ومنه إلى أرض مختصة ما بين رياض، وغياض، ويعلوها محلة النيرب، وهى من أعظم المحلات، وأنضرها.

وبها : سوق، وحمام: يقال له : حمام الزمرد بالنيرب، وقد عده الحافظ بن عبد الهادى^(٣) من حمامى الصالحية.

حمامات الصالحية^(٤) :

وقد ذكرها كلها بقوله، فقال : باب فى حمامات الصالحية، من تاريخه ومن خطه نقلت : حمام الزمرد بالنيرب : خرب وزال.

(١) الكنانى الصالحى، هو : أحمد بن إبراهيم بن نصر بن أبى الفتح، العسقلانى، عز الدين أبو البركات، أكثر من الجمع والتصنيف، ومنها : تنبيه الأخبار على ما قيل فى المنام من الأشعار، توفى سنة (٨٧٦هـ). انظر ترجمته : الضوء اللامع (٢٠٥/١) شذرات الذهب (٣٢١/٧) .

(٢) ابن عمارة الأندلسى، هو: محمد بن عمارة الهروى، الشلبى، المالكى، أبو بكر، أديب، شاعر، ذو الوزارتين، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة (٨٤٤هـ). انظر: معجم المؤلفين (٥٥٦/٣).

(٣) ابن عبد الهادى، هو: محمد بن أحمد بن عبد الهادى بن عبد الحميد بن قدامة المقدسى، الصالحى، المحدث، الحافظ، الفقيه، من آثاره: تنقيح التحقيق فى مسائل التعليق، فضائل الشام. توفى سنة (٧٤٤هـ). انظر: تاريخ الصالحية، لابن طولون (٤٣٢/٢) . معجم المؤلفين (١١٣/٣).

(٤) الصالحية: بلدة كبيرة يحيط بها جبل قسيون بالشام. انظر: معجم البلدان (٤٤٢/٣).

وحمام السبيلية : كذلك.

وحمام مقرى : كذلك.

وحمام الزهر : نسبته إلى بانيه، وخرّب وصار مكانه جنينة.

وحمام العلاء : فوق الكاس.

وحمام الركنية، والنحاس.

وحمام القاضى حمزة.

وحمام الحاجب : بناه الأمير محمد بن مبارك صاحب الحاجبين.

ومثله فى الحسن حمام الرباط : بمحلة الجسر الأبيض.

وحمام ابن العينى.

وحمام الحنفى.

وحمام العرائس.

وحمام العفيف.

وحمام المقدم.

وحمام إبراهيم الخواجا.

وحمام الجوهرة، لصيق [حمام] ابن عربى.

وبمحلة الجسر : مقصف وعمائر وقصور، وبه مقصف على نهر تورا،

وحمام وبعض حوانيت؛ وهو أعدل هواءً فى دمشق وكان متهدماً زمن السلطان

سليم^(١) عليه الرحمة؛ فاشتراه بمائة ذهب ماعدا حلة الماء، وضافه للمسجد الذى أنشأه.

قال : وثم حمامات فى بيوت، ففى بيت القاضى كمال الدين بن الخطيب؛ حمام.

وفى بيت الجرودى حمام.

وفى بحارة مقرئ حمام، انتهى كلامه .

(١) السلطان سليم الأول، من السلاطين العثمانيين، قضى على دولة المماليك فى موقعة

(مرج دابق)، وفتح سورية، مصر. توفى سنة (٩٢٥هـ) انظر ترجمته : العثمانيون فى

التاريخ والحضارة، محمد حرب ص ٢٣ : ٣٠ .

وترك ذكر حمام الربوة، وحمام النحاس، ولعله هو حمام الركنية والله أعلم.
والآن لم يبق بالصاحبة سوى خمسة :

حمام الحاجب، وحمام المقدم، وحمام العرائس، والعميف، وعبد الباسط.
وفاته ذكر حمام الربوة، وحمام ابن سلطان بالسكة، وحمام عند المسجد
لصيق الجامع الأفرم، ولعله قبل المسجد، لصيقه قبل الجامع، وقد انكشف لنا،
وراوا : إنما بيته وعمارته.

وكان مردوماً وظهر ذلك التل عنه في سنة سبع وأربعين ومائة وألف .

ذكر محلة النيرب^(١) :

ثم إن محلة النيرب كما قال ابن مزلق : هي من أعظم المحلات، وأنضرها،
وبها سويق، وحمام الزمرد، وجامع بخطبة، وبها مسكن الرؤساء والأكابر، وبها
دار القاضي ابن حجر انتهى.

قلت : ويدخل منها إلى محلة الدهشة.

قلت : ولعله لم يذكر محلة الدهشة؛ لأنها من جملة النيرب.

وفي محلة الدهشة: سكن القاضي السبكي^(٢)، صاحب (جمع الجوامع في
الأصول)، ومنها للربوة، ويأتي ذكرها في القريب.

أقول : التغزل لما انتشأ موضع العمارة من الحدائق والبساتين الظليلة
والفواكه الجليلة، وإلا فالعمائر لا يتغزل فيها في العادة.

وفي النيرب، يقول بدر الدين الذهبي :

رعى الله أرض النيربين فباتنى	قطعت به يوماً لذيذاً من العمر
رأى أنى جنته متنزهها	فمد لأقدامى بساطاً من الزهر
وأوصى لأغصان قربي فأرسلت	هدايا من الأرياح طيبة النشر
وأخذ منى الماء الفرات وحيثما	سحت رأيت الماء في خدمتى يجري

(١) النيرب: قرية مشهورة بدمشق، يقال فيها: مصلى الخضر. انظر: معجم
البلدان (٣٨٠/٥).

(٢) السبكي، هو: عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، الأنصاري، أبو نصر، تاج الدين، من
العلماء والفقهاء البارزين، له المؤلفات الشائعة الصيت، منها: طبقات الشافعية، شرح
المنهاج. توفي سنة (٥٧٧١هـ). انظر: الدرر الكامنة (٤٢٥/٢) معجم المؤلفين (٣٤٣/٢).

وأجاد الوداعي بقوله^(١) :

ويومٌ لنا بالنيربين رقيقة
وقفنا وسلمنا على الدوح بكرة
وقال سيف الدين المشد وأبدع^(٢) :

وصبأ صبت من قاسيون فسكنت
فاضت مياه النيربين عشية
وللمنيني قوله من بعده^(٣) :

دغ قلب المحب من يقاسي
ياعيوني أين الدموع فقد
إلى قوله :

عنده النيربين من نهر تورا
واقضرار المروج من بتياس
وقبله قوله :

من بنى الترك ضيق العين وهي من صفة
جذب القوس فاكتست وجنتاه

ومنها قوله بعد ذكر، ذكر الغوطة، وهي من منتزهات دمشق قوله :

والنسيم الذي يمر على الغو
بلدة حل بها الحبيب فر
طمة ريان نشره عاطر الأنفاس
عاهًا خصب والناس في أغراس

(١) الوداعي : علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر، الإسكندراني، أبو الحسن، علاء الدين، من الأدباء، والشعراء، ومن تصانيفه : ديوان شعر في ثلاث مجلدات، توفي سنة (٧١٦هـ). انظر ترجمته : الدرر الكامنة (١٣٠/٣) النجوم الزاهرة (٩/٢٣٥).

(٢) سيف الدين المشد، هو : علي بن عمر بن قزل، التركماني المعروف بالمشد، شاعر من الأمراء توفي بدمشق سنة (٦٥٦هـ). انظر ترجمته : الوافي، للصفدي (١٢/١٢٨) البداية والنهاية (١٣/١٩٧).

(٣) المنيني، هو : أحمد بن علي بن عمر بن صالح بن إدريس الدمشقي، الحنفي، شهاب الدين، أبو العباس، محدث، شاعر، من مؤلفاته : الأعلام بفضائل الشام، توفي سنة (١١٧٢هـ) انظر ترجمته : سلك الدرر (١/١٣٣) معجم المؤلفين (١/٢٠٧).

ومما انشدنى بعضهم لبعض القراء وأجاد :

سقى الوسْمى سَفْحُ النيربين وحياتها الحيا بالواديين
ديارات جفاهها الغيثُ يوماً سقاها الغيثُ دمعَ المُقتلين
حوى المُرُ فى نارها فرقت بها الولدانُ بين الجنتين
فيالله من حورا راتها وانظرُ حسن مهجتها بعين
وصدرُ البازِ أشرح فيه صدرى بنسمة نشره فى الخفتين
والشمُ شهده كالشهدِ طعاما وارتغ فى رياض الربوتين
فياحادي السرى عج بالمطايا وعرج نحو مرج الغوطتين
اعل باللقى قبا علىأ واتشد ناظرا للفرقيدين
وانشد كلما قد لاح يرق سقى الوسْمى سَفْحُ النيربين

وأما منتزهاتها بين النهرين قال ابن المزلق :

وهو مبتدأ الوادى غربى البقاع يشتمل على: فرجة سماوية، بها دور،
وقصور، وسويقة.

وبها : حانوت طباخ، وصاجاتى^(١)، وخوامرى، وقطيفانى^(٢)، وفاكهانى،
وقلاينى^(٣)، وسكردانى^(٤)، ونقلى^(٥)، وقاعة، وعدة مقاعد للخليفة، وحمام،
وقنطرة يتوصل بها إلى جزيرة لطيفة من ورائها يبقى نهر برديا ثم يصير
نهرين، والمقسوم مبتدأ نهر الشيخ الصالح أرسلان -قدس الله سره-

وبها : مقصفان للبطالين فيما بين المقسمين، وقبالهما زاوية الباتى الثابتة،
يقام فيها المنشد والتلاوة بالوعظ والذكر، والدواخل، ما ثم يجعل الحاضر غائباً؛

(١) الصاجاتى: من الصويج، وهو الذى يخبز به، أى من يحمل الخبز وغيره على الصويج.

انظر: القاموس المحيط، مادة [صوج].

(٢) قطيفانى: صانع القطنف، الحلوة المعروفة. انظر: القاموس المحيط، مادة [قطف].

(٣) القلاينى: الذى يقلى الطعام. انظر: القاموس المحيط، مادة [قلاه].

(٤) السكردان: من أنواع الحلوى، والسكردانى: صانعها، فارسية. انظر: لسان العرب،
مادة [سكر].

(٥) النقلى: الحمال الذى ينقل متاع الناس وغيره من الأحمال. انظر: القاموس المحيط،

مادة [نقل].

ويتوصل منه إلى شقائق النهرين المشتمل على : طباق وقاعات، وكم غرفة، وكم رواق، والجميع مطل على النهرين، وفي كل منهم ناعورة يستلذ، بأنينها ويجيب له الماء إذا سمع حنينها انتهى كلامه.

وقلتُ : وليس في تلك الناحية من النواكير إلا الذي في المولوية، وباب الهوى، وكان من منتزهات دمشق وبه الناعورة، وهي الآن للمسجد الذي هناك، وكان بهذا المحل أماكن متجرية، فأنشأ بها محمد باشا بن بيرم مدرسة، وهي الآن بينة.

ومن المنتزهات : القرينة؛ جامع يلغا.

قال ابن المزلق : وهو يطل على الربوة زمرُداً من سائر جهاته.

قال : وعلى بحرته غرفة، ولها نوفرة، قدر قامة.

ومن منتزهات الجوامع : الجامع الرديكي بدمشق؛ فإنه مركب على بردة، وله ثمانية شبابيك، اثنان شرقيان، وأربعة قلبية، وفي الجهة الغربية الجامع.

وبقى من العماير : المدارس الكدجانية، والمولوية، والزهرانية.

وأما القصور: فهي المقاعد المعمرة للنزهة الآن، ولعل القصور المبنية للنزهة في الصالحية وغيرها، محدودة، وقديماً كان تعمر العماير للنزهة من غير طين، والعماير المكلفة كانت للمدارس والجوامع بخلاف الآن.

ومن المحاسن: جامع تتكز، والخانقاة في الرف الأتني وهي إلى الآن، وفيه الآن يجرى نهر بانياس، وليس في الشام نهر يجرى في الجامع ظاهراً إلا هذا، ونهر مدرسة العمرية بالصالحية، وهو في الزقاق القبلي.

قال ابن المزلق : فيه شباك على خط الاستواء يشرف على المرجة والأنهار، ومقابلة الكوجانية؛ وهي مدرسة عظيمة مطلة على المرجة كلها، وهي بستان الآن ماعدا العمارة في الأعلى.

قال في النزهة :

وقيل : كان بها قبة لها طاقات بعدد أيام السنة، كل يوم في طاقة، وهذا من أحسن الهندسة، وغالب الشرفين كله مقاعد ومحاسن وبساتين للنزهة، وفيه بعض قصور.

قال : وفى تتكز، ناموثان^(١) يقرغان إلى حوضين كبيرين، بها سائر الأشجار، وجميع الرياحين والأزهار.

وبها : بركة مربعة بها كأس فى غاية التتوير؛ فهى للتتزه مقصد، وللمصلى معبد.
وبها: مأذنة من العجائب، ومكتوب عليها اسم معماريها مع كونها جسر، ومقصورة لها دربان، ولم يوجد مثل ذلك فى غيرها.

وكل شرف^(٢): فيه عدة مدارس ومساجد، وكل واحد مما يكفيه، استولى عليه أيدى المتشبهة بالفقهاء، فأظهروا فيه أنواع المناشد، وكل من الشرفين مطل على القصر الأبلق والمرجة.
والشرف؛ اثنان:

الأعلى، وفيه : المدرسة الكوجانية، والمزية، والأمجدية ممن كان فيه أماكن الإمارة وغيرهم، وقصور إلى قرب الربوة.
قال ابن طولون^(٣) : ومساجد وخطب، وبطل ذلك وخرب، وكان فيه بعض حوانيت وخانات؛ وأوله البولسية المدرسة العظيمة، وكان يعرف بدار الإمارة، أبطل كله فى ليلة بعد العصر.

وكذلك الشرف الآخر وفيه : عدة مدارس، وأوله الحامية المشهورة، والآن به أيضاً المدرسة المولوية، وانتشأ به قصور للنزهة بعد تلك العمائر والمحلات العامرة، وكانت قرب الخلال فى الشرف الأدنى، وقربها عمائر، وكان قرب الخلال: جامع بخطبة، وخوانق إلى غير ذلك؛ فسبحان من لا يتغير شيئاً.

والشرفان : كل منهما مطل على الميدان، والشقراء، وصدر الباز، وبين النهرين، وليس إلا الآثار، والأسماء على تلك المسميات.
وفيه يقول، فى الشرف، الشمس النواجى رحمه الله تعالى^(٤) :

(١) هكذا فى المخطوط.

(٢) الشرف، مفرداً شرفاء: البناء الكبير. انظر: القاموس المحيط، مادة [شرف].

(٣) انظر: تاريخ الصالحية، لابن طولون (١/٨٦).

(٤) الشمس النواجى، هو : محمد بن حسن بن على بن عثمان، القاهرى، شمس الدين، أديب، شاعر، رحل وطاف بالبلدان، توفى سنة (٨٥٩هـ) انظر: الضوء اللامع (٧/٢٢٩) شذرات الذهب (٢/٢٩٥).

ألا إن وادي الشام أصبح آيةً محاسنه ما بين أهل النهى تتلى

وإن شرفت بالنيل مصر فلم تزل دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

قال ابن المزلق : ونقلت من خط، العلائي، على ابن الشرف المارديني^(١)،

في غلام اسمه على من محلة الشرف الأعلى :

حى على ولكن وجهه حسنُ وفعله المرتضى يخلو به الشفقُ

بدر من الشرف الأعلى له نسبُ وهل لغير على ينسبُ الشرفُ

ولابن الشهيد^(٢) كاتب السر، في الشقراء، والميدان الأخضر قوله :

لم تخك جلق في المحاسن قول صحيح ما به بهتان

ولئن عدوت متلفا في غيرها ها بيننا الشقراء والميدان

ومن جملة الشقراء : طاحون، وعدة حوانيت نحو عشرين حانوتا، ويعلوهم

طباق مطلة على المرجة، وبآخرهم مسجد مظل على يرديا، وأدركت الطاحون

غير دائرة، هدمها وكيل السلطان، برهان الدين بن ثابت في أوائل دولة

الأشرف.

قال شبيب بن حقليد : كانت المرجة عامرة أهلها، وبعضهم سماها : صدر

الباذ، كانت تسمى به.

ولابن تميم^(٣)، يصف الميدان :

عجبا لميداني دمشق وقد غدا كل له شرف إليه يؤول

والنهر يتناها لغير جنابة سيق على طول المدى مسنول

(١) العلاء المارديني، هو : أحمد بن إدريس بن يحيى، شرف الدين، اشتغل بالفلك، توفى

سنة (٧٢٨هـ). انظر: معجم المؤلفين (١٠٠/١).

(٢) ابن الشهيد، هو محمد بن إبراهيم بن محمد النابلسي الدمشقي، المعروف بابن الشهيد، فتح

الدين، ولى كتابة السر ومشیخة الشيوخ بدمشق، عالم الأدب، فقيه، مؤرخ، توفى سنة

(٧٩٣هـ) انظر: شذرات الذهب (٣٢٩/٦) الأعلام (١٩٠/٦).

(٣) ابن تميم، هو : محمد بن يعقوب بن على الحموي، شاعر من الأمراء، له ديوان شعر،

توفى سنة (٦٨٤هـ) انظر: البداية والنهاية (٣٠٧/١٣) معجم المؤلفين (٧٧٦/٣).

ومن خط البغوى محمد الحموى قوله فيها :

ذَكَرْتُ أَحَبِّي بِالْمَرْجِ يَوْمًا فَذَفْتُ أَدْمَعِي نَارًا لَوْ هَجِي
وَصَرْتُ أَكْبَادُ الْأَخْزَانِ وَخَدِي وَكَانَ النَّاسُ فِي هَرْجٍ وَمَرْجٍ
ومن بديع القاضى، محيي الدين بن عبد الظاهر :

وَمَرْجٌ لَهُ فِي وَادِي شَرْفِكَ مَنْظَرٌ وَلَا سِيَمَا إِنْ جَاءَ غَيْثٌ مَبْكُرٌ
بِهِ فَاضَ نَهْرٌ مِنْ لَجِينِ بَأْذَمِعِ كَأَنَّهُ صَفَائِحُ أَضْحَتِ بِالنَّجُومِ تَنْثُرٌ
تَلَاخِظُهَا عَيْنَا تَفِيضُ بَأْذَمِعِ يَرْفِقُهَا مِنَّا هُنَاكَ مَجْبَرٌ
وَكَمْ نَازَلْتُهُ بِالْفِزَالَةِ مَقْلَةً تَسَارِقُ أُرَاقَ الْفِصُونِ فَتَنْظُرُ
إِذَا فَاخَرْتَهُ الرِّيحُ وَلَتَ عَلِيلَةً بِأَذْيَالِ كَثْبَانِ الرِّبَا تَنْعَثُرُ
بِهِ الْفِضْلُ يَبْدُو وَالرَّبِيعُ وَكَمْ غَدَا بِهِ الرُّوضُ يَحْيَى وَهُوَ لِأَشْكَ جَعْفَرُ
والجعفر : اسم [للمكان] .

ومن محاسنها: الأنهار السبعة المشهورة، وقد ذكرها المقدسى من جملة

قصيدة له مشهورة أولها :

يَاتِسِمَةٌ لَثَمْتُ حَبِيبِي وَغَدَا يُخَرِّكُ لَطْفُهَا
لَمْنِي وَعَجِيبٌ دِيلُهَا لَمْنِي وَعَجِيبٌ دِيلُهَا
إِنْ جَنُوتِ وَادِي جَلَّقِ وَرَأَيْتَ مَتَلَفٌ بِهَجْتِي
وَرَأَيْتَ السَّهَامَ لِحَاطُةً تَرْمِي السَّهَامَ لِحَاطُةً
وَرَأَيْتَ جَامِعَهَا الشَّرِيفِ وَرَأَيْتَ جَامِعَهَا الشَّرِيفِ
بَرْدَى يَزِيلُ بِحُسْنِيهِ بَرْدَى يَزِيلُ بِحُسْنِيهِ
وَالْبَاتِيئِ سَاسُ وَنَقَشُهِ وَالْبَاتِيئِ سَاسُ وَنَقَشُهِ
وَرَأَيْتَهُ بِالنَّبِيرَيْنِ وَرَأَيْتَهُ بِالنَّبِيرَيْنِ
فَتَخَالَهُمَا بِرَحِيقِهَا فَتَخَالَهُمَا بِرَحِيقِهَا
وَيُخَوِّرُ تَوْرَاهِمَا فِيرِ وَيُخَوِّرُ تَوْرَاهِمَا فِيرِ
وَيَزِيدُ دَمْعِي إِنْ ذَكَرْتِ وَيَزِيدُ دَمْعِي إِنْ ذَكَرْتِ
سَأَجِيبُ دَاعِيَةَ النَّوَى سَأَجِيبُ دَاعِيَةَ النَّوَى

وهي طويلة نظمها ببلاد الروم، وهذه المياه مختلفة؛ خفة وثقلاً، مع أنها شيء واحد كما أخبرني من وزن من ذلك .

وبدمشق: أعين كثيرة، وأما السفح فلا يوجد فيه شيء من ذلك.

وبتلك الأنهار: نواعير في بيوت، ومدارس، وقصور، وبطل كثير منها، ففي الصالحة نواعير، وفي دمشق نواعير إلى الآن .

أما في الصالحة : ففي اللشمية واحدة، وفي المرستان أخرى، وفي القصر عند مسجد العفيف، وفي أماكن آخر كثير، وفي الحديقة الأسعدية واحدة، وعند الربوة واحدة في حديقة هناك، ولكن لا تبلغ عظم نواعيرها.

ومن محاسن ابن الوردى^(١) في غير ذلك قوله :

نَاعورة مذعورةٌ ولهَاءٌ شَكلى دَائِرةٌ
المَاءُ فِى فَوْقِ رَأْسِهَا وهى عَلَيْهِ دَائِرةٌ
ولابن نباتة^(٢) في ذلك قوله :

نَاعورةٌ قَالَتْ لَنَا بِأَيْنِهَا قَوْلًا وَلَمْ تَذْرِ المَقَالِ وَلَمْ تَعِ
كَمْ فى مَن عَجِبَ يُرَى مَعَ أَننى أَبدًا أَسِيرٌ وَلَا أَفَارِقُ مَوْضِعِى
لَا رَأْسَ فى جَسَدِى وَقَلْبِى ظَاهِرٌ لِلنَّاطِرِينَ وَأَعينِى فى أَضْغَعِى
وله أيضًا :

ونَاعورةٌ شَبَّهْتُهَا إِذْ رَأَيْتُهَا وَمَا زالَ فِكْرِى بِالفَرَاتِ بِسَمْعِ
بَطَائِرِةٍ مَخْضِرَةٍ كَلَّ ريشَةَ لَهَا تَحْتَهَا عَيْنٌ مِّنَ الدَّمْعِ تَسْفَحُ

(١) ابن الوردى، هو : عمر بن مظفر بن عمر بن محمد أبو الفوارس المعمرى، زين الدين، فقيه، أديب، مؤرخ، ولى القضاء بمنبج، وتوفى فى حلب سنة (٧٤٩هـ) انظر: الدرر الكامنة (١٩٥/٣) النجوم الزاهرة (٢٤٠/١) .

(٢) ابن نباتة، هو: محمد بن محمد بن الحسن الجزامى، الفارقى، المصرى، أديب، وشاعر، ومؤرخ، سكن الشام، توفى سنة (٧٦٨هـ) انظر: الدرر الكامنة (٢١٦/٤) النجوم الزاهرة (٩٥/١١) .

ولابن الخطيب الأندلسي^(١) في ذلك :

ناعورة تحسب عن ذريتها
كأنما يميز أنها عصبية
قد منعوا أن يلتقوا فاغتمدوا
ومن بحر القيراطي :

وناعورة قد ضاعفت بنواجها
وقد ضعفت مما تنن وقد غدت
ولابن القضاعي^(٢) :

وذات شجوا أسبالت
تبكى بفرط دموع
ولابن نباتة أيضا :

وناعورة قسمت حسننها
وقد ضاع نشر الرأيا فاغتمدت
وله أيضا :

أعجب لنا ناعورة قلبها
تعباتة الجسم ولكنها
وللأمير مجير الدين بن تميم :

أبدت لنا بالعذر ناعورة
تقول لما ضاع قلبي وقد
صيرت جسمي كله أعينا

(١) ابن الخطيب الأندلسي، هو: محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلماني، الأندلسي، ذو
الوزارتين، من الأدباء والشعراء، المشهورين، من آثاره: طرفة العصر في دولة بني
نصر. انظر: الدرر الكامنة (٤٦٩/٣). معجم المؤلفين (٤٤٠/٣).

(٢) ابن القضاعي، هو: جابر بن إبراهيم بن علي التنوخي الشافعي، شاعر، عالم بالعروض،
والنحو. من تصانيفه: ديوان شعر. انظر: الكواكب السائرة (١٣٠/٢). معجم
المؤلفين (٤٦٩/١).

ومن تضامن ابن تميم :

وناعورة شبهتها حين ألبست
كطاووس بستان يدور وينجلي
ومن لطائفه رحمه الله تعالى :

ناعورة مُذْ ضاع عنها قلبها
وتعللت بلفائفه فلأجل ذا
ولبعضهم :

ونناعورة هيجت
فأعجبوا من متريهم
ولبعضهم :

نواعير نعت لى
فهام القلب منى
ولبعضهم :

لقد كنت غصنا فى الرياض منعما
فصيرنا صرف الزمان كما ترى
ولبعضهم :

أبدى لنا الدولاب قولاً معجباً
إتى من العجب العجاب كما ترى
ولبعضهم :

وذات شـجـو أسـالت
تبكى بـفـرط دمـوع
ولا بن تميم :

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها
أدور على قلبى لأنى فقدته
ولبعضهم :

ودولاب إذا نـاح
سقى الغصن وغناه

من الشمس ثوباً فوق أثوابها الخضر
وينفض عن أثوابه بلل القطر

دارت عليه بأدمع وبكاء
جعلت تدور عيونها فى الماء

يوم باتوا بنا الجوى
قلبه همام بالنوى

رشا للقلب راعى
على حسن النواعى

أمينسُ ونصبى فى أمان من الخفض
فبعض كما لاقيت بيكى على بعض

لما رأنا قادمين إليه
قلبى معى وأنا أدور عليه

مدامعاً لم تصنها
ويضحك الـروض منها

وأضلعها كادت تُعد من السقم
وأما دموى فهى تجرى على جسم

يزيد الصبب أشـجـاناً
فلا يبرح سنـكـراناً

ولبعضهم :

وحاملة للماء محمولة به
تميل به طوراً وطوراً تميلة
وقد قُسمت شطرين بالفرض مثلما
إذا ما امتلا شطراً تصعد عاليًا
كما كان حكم الروح للجسم حاملاً
ولبعضهم :

ودولاب يثن أنين صاب
تذكر هذه بالروض غصناً
وما يدري أترديد لمغنى
ويسأل بعضهم المفتى الغزى ملغزاً :

يا أيها الحبير الذى
بين لنا دائرة
علم العروض به امتزج
فيها بسبب وهزج

ففكر ساعة، ثم قال فى ذلك : الناعورة، والبسيط هو الماء، والهزج : نوع
من الغناء يقال: صوت هزج، أى طيب، وأراد بالدائرة : الدولاب، لا دائرة
العروض ولا بحر البسيط.

وفى لغة الفارسية : الدولاب يسمى الناوردة.

وعليه قول ابن النقيب السيد عبد الرحمن :

يا هلالاً يدور فى فلك الناورد
قف لنا فى الطريق إذ لم تزرنا
رفقاً بالأعين النظارة
وقفاً فى الطريق نقف الزيارة

ولعله اسم مشترك فى كل دولاب، ويحتمل أن يكون الناورد اسم قبة
الدولاب التى يركبها الأولاد أيام العيد وتدور فيهم، أو يكون مثل الفلك له اسماً
آخر، والناعورة، ودولاب الغزل، ودولاب الهوى كلها شىء واحد فى العربى.

ولبعضهم :

ودائرة تدور بوسط ماء
أقامت لها الأدلاء تنزح ماءها
وقد أعيانا لأضلاعها الفتل
لتخلص من عين وما قصدها نهل

محلّتا الخلخال والمنبيع^(١) :

قال ابن المزلق فى (نزهة الأنام) : بها سويقة، وحوانيت، وفرن، وحمام، وهى مسكن الأتراك، وكذلك المنبيع، والشرفين، وبهما تدقّ طبولهما كالدار المنسوبة لابن جان بلاط؛ أعنى الكوجانية قبل أن تجعل مدرسة.

قال : وبها رواقان للأدمية وهى لحق الناس والأعيان،

وما أحسن قول ابن نباتة فى الخلخال :

ياحبذا يوماً بوادى جلقٍ ونزهة مع الغزال الخالى
من أول الجبهة قد قبلته مرتشفاً لا من الخلال

والمنبيع : بها أيضاً سويقة، وحمام، وفرن، وبها مدرسة الخامونية، وهى من عجائب الدهر، يمر بها بانياس، ونهر القنوات على بابها، وهى مطلة على الخضراء، وبها ألواح الرخام، وعدة خلاوى لطلبة، وبجوارها دار الأمير ابن منجك انتهى.

قلت : ولعلها التى يقال لها الآن : الزهرابية، سميت باسم رجل من الأروام يسمى؛ زهراب، وهى التى يفتح بابها إلى الصوفية، وهى التربة المشهورة، بها قبور أعيان العلماء؛ كابن تيمية، والعماد بن كثير، وابن الصلاح، وصفى الدين الهندى، وغيرهم من الأجلاء.

ويقال لها : تربة البرامكة، وكانت فى القديم محلة عظيمة عامرة بالبيوت والدور الهائلة فى الشرف، الأدنى كالأعلى؛ فسبحانه وتعالى.

وقال فى نزهة الأنام للأديب ابن المزلق : نقلت من خط المرحوم الشمس النواجى قوله فى وصف المنبيع :

أيا سادة اهدوا محاسن جلقٍ لطفى ففاضت بالبكا عبرتى
منبيع جفنى فوق ربوة جبهتى يزيد ودمعى بعدكم فتواتسى

قلت : وهذه من جملة المحلات المنتزهة، والآن لم يبق من المنتزهات العامرة غير الصالحية، وأما هذه الأماكن كالشرفين، وصدر الباز؛ فإنها

(١) انظر: تاريخ الصالحية، لابن طولون (٢٥٥/١).

تعوضت بالبساتين والحدائق والقصور، وكما فى الشرفين، ذلك ولم يبق مما ذكره ابن المزلق من النيرب، والخلخال، والجبهة، والرَبوة إلا الأماكن المجردة عن العمائر؛ بل كلها منتزهات فسحة مجردة من العمائر كالميدان، وأما غالب المنتزهات المعدة لذلك بالصالحية، وإنها فى أيام الورد ينزلها أهل دمشق، وتملأها، وتمكث بها ليلاً ونهاراً حتى تنقضى مدة الورد، ومنهم من يأتى بجميع الحوائج، ومنها عند القصورية المعدة للمتنزهين من الصحون، والمعالق والطناجر واللحف، والبسط، وبها مقاعد لا تحصى مما يغنى عن الحمل وحدائق للنزهة.

وأما بساتينها: فقلَّ أن يجعل فيها مقعد للسرنجية إلا النادر.

وأما النيرب والدهشة: فكله منتزة، عاض الأشجار غزير الماء، كثير الأثمار، بعد ذلك الدور والعمائر، وتغزل به الشعراء المتأخرون أيضاً .

قلت : ومن المحلات الظاهرة الصالحية، وقد أتى عليها صاحب كوكب الملك، وهى من محال دمشق العامرة، تشتمل على عمارات هائلة قديمة، وقد تقدم ذكر مدارسها وتعين حوانيتها من الذى اشتهر، وبها آثار قديمة، وبها مغارة الدم، والكهف؛ إنه الغار، والمقيم به كان يسمى؛ جبريل، وبه كان مؤذنة، وبها مساجد لا تحصى.

وأما الجوامع : فخمسة، وتشتمل على قباب كثيرة؛ فتبلغ المئات على قبور علماء وأمرء، وبها زيارات مباركة، يُنذر لها، وتُقصد بالزيارة غالباً؛ كالشيخ محيى الدين ابن العربى -قدس الله تعالى سره-.

والشيخ أبو بكر العرودكى -قدس الله سره- وابن قوام، والشيخ محمد الزغبى -قدس الله سره-، ومياها صافية، وبها قصور، ومقاعد، وجناين، وحدائق الياسمين، والبساتين دائرة حولها من كل الجهات، وهى منتزه الشام فى كل وقت، خصوصاً فى أيام الورد أكثر.

وأما مدارسها : فهى أكثر من مدارس الشام بكثير كالعمرية، والناصرية، والضيائية، والصارمية، والمتواتر، أن فيها قبور كثير من الأنبياء، وبها المزارات؛ بالمفخمة كالعجمية والأنجبية، والكيلانية، والجوارزمية.

وحدها كما قال ابن عبد الهادي المحدث : الشرف الأعلى قبله، ثم أرض حمام الورد، ثم أرض مرج الدحاح، ومن جهة الشرق أرض بيت لها ثم مطية السلطاني، ثم برزة، ومن الشمال الجبل.

وأما السفح فحده : من الربوة إلى برزة، والربوة إلى جسر شواش، فكل ما كان فهو من الصالحية، وتغزل به الشعراء.

وللبوريني^(١) العلامة موالأ قوله:

بالسبح من قاسون الشام نحو السهم رشا من الترك لكن ناظره من سهم
يرنو فيرمى بقلبي من لحاظه سهم ما يمنعا لو جعل لي من وصاله سهم

ولابن نباتة في منتزهات دمشق وهي السهم والسطر:

يا صاح ما في جلق نزهة تتسيك من أتت به مغرى
يا عاذلي داؤك من لحظه سهما ومن عارضه سطرأ

وأخذ منه الجلال بن خطيب دارياً^(٢):

سألتكما بالله إن جنتما الشام بكرة وعانيتما الشقراء والغوطة الخضرا
قفا وأقرأ منى كتابا كتبته بدمعى بكم مغرى ولاتنسيا سطرأ

والطر: كان محلة مقابل جامع أكلجك عند برج الروس، وهو الطريق الآخذ للسفح مقابل باب الجامع، والآن أحسن منتزه ؛ لأن بساينه وحدائقه لا تحصى، ليس فيها موضع شبرٍ خالٍ من الزرع والأزهار، وإن كان قبله فيه عمارة، وفيه بستان الباشا المشهور بيدبني الأرنبوط بدمشق، وغيره أكبر منه.

(١) البوريني، هو: حسن بن محمد بن حسن بن عمر الصقوري، الدمشقي، بدر الدين، مفسر، مؤرخ، أديب، شاعر. من آثاره: تراجم الأعيان. توفي سنة (١٠٢٤هـ). انظر: معجم المؤلفين (٥٨٩/١).

(٢) ابن خطيب دارياً، هو: محمد بن أحمد بن سليمان بن عساكر الأنصاري، أبو عبد الله، أديب، مشارك في علوم النحو واللغة والتاريخ، من آثاره: محبوب القلوب، الليث والضرغام. توفي سنة (٨١١هـ). انظر: معجم المؤلفين (٦٧/٣).

ومن المحلات العامرة المنتزهه التابعة؛ للصالحية :

الجسر الأبيض: وبه سويقة وطابونة، ومكان للقصف، والنزهة وسمى الآن النهودة، وعرار، ويمان، وحمام عبد الباسط وهو من أنزه الحمامات، ولصقه حارة عامرة، وقصور لبعض الكبراء يكونوا فيها أيام الصيف، وقربها الماردانية، وفيها خطبة ولصقها المدرسة الديراهيمية، وقربها الباسطية أيضًا، وحدائق لاتحصى متصلة كلها مشتبكة بالزروع والأشجار، وقبل ذلك كان محلات كالسهم، وهي بيوت متصلة، والآن حدائق وبساتين، وقربه محلة السفلية، وبه حمام وسوق كالجسر الأبيض، وحدائق، وبيوت لبعض الكبراء كدار شنتمر وغيره، وقريب منها محلة السبع قاعات.

قال الحافظ ابن عبد الهادي في تاريخ الصالحية: دخلها وكانت منهدمة، وكان محلة الركنية، وهي الآن لا أثر بها، ومحلة جامع النحاس، وبه جامع، وحمام، والآن لم يبق سوى تربة قرب الركنية، ومحلة طاحون الشنان، وهي الآن لا أثر بها سوى المدرسة الرحيمية، والقبة، والتربة مسكن إلى الآن، وهو مكان مبارك، وكان به خطبة بطلت في عصره. وهناك في ذلك الخط قباب وترب عظيمة على خط المدرسة، ومحلة طاحون الشنان عندها مئذنة، ومسجد، وحمام، وحوانيت، وقربها محلة قصر اللبان، وعنده تربة عظيمة قلت: وكان لها محلة أخرى يقال لها: المنظور، وتغزل به الشعراء، وكان بها دار الحافظة المحدثه: كريمة^(١) وسماها في (كوكب الملك ودولة الترك): مدينة الصالحية لعظمتها وكبرها وكثرة جوامعها ومدارسها وخوانقها إلى قرب ديرمران، وتقدم أنها اشتملت على نحو عشرين حمامًا.

وأما مدارسها: فنحو المائة ماعدا الزوايا والجوامع والمساجد والترب المكلفة والآبار.

وبها قبور الأعلام والأولياء الفخام، والآن لم يبق إلا الذي انتشأ من زمن أبي عمر صاحب المدرسة المشهورة، والذي كان قبله تخت يزيد من السهم والمسطور وقصر اللبان والنيرب والدهشة والربوة، لم يبق إلا الاسم، وتعوضت

(١) كريمة: اسم أطلق على عدة محدثات وراويات للأخبار.

مكان العمارة بصنوف الأشجار والثمار يقلب الله الليل والنهار، والآن بها قمز
خطب السليمة، والمظفرية، والخاتونية، والماردانية، والحاجبية، وكان قديماً
يصلى الجمعة بالجامع الأفرم، وبطل .

ووجدتُ بخط بعض العلماء: أنه كان بالناصرية خطبة، وفي الربوة وفي
الدهشة، لكن لم يكن تجدد هؤلاء، وبالسليمية كان خطبة وهي بالمدرسة البدرية،
وأدركها بعض من أدركنا ممن أدركه، والآن بها خمسة حمامات.

وأما القصور، والحدائق، والجنائين، والمقاعد؛ فمما لا يحصى، وليس فيها
شيء من ذلك خراب.

محلة الربوة :

قال الأديب ابن المزلق في نزهة الأنام في محاسن الشام:

ومحاسن الشام: الربوة؛ محلة الربوة أحدثها بنوكنعان، وقال بعض
المفسرين في الربوة: أحدثوها بنوكنعان، وابتدؤها، وذكرها الله في القرآن في
قوله تعالى ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]. وهما
عيسى ومريم عليهما السلام.

قال الحافظ في تاريخ الصالحية: قال عدة من العلماء: إنها ربوة دمشق.

وذكر البيضاوى في تفسيره هذه القول، وقال به الدينورى في تفسيره.

قلت: والربوة: المكان المرتفع.

والغوطة: الوادى المتسع.

قال ابن المزلق: وإنما قيل لها ربوة؛ لأنها مشرفة على الغوطة بها منارة
لطيفة بسفح الجبل الغربى، وبه صفة ومحراب يقال له مهد عيسى عليه السلام يزار،
وينذر له، وبها جامع، وخطبة، ومدارس، وعدة مساجد، وقاعات، وأكناف، وبها
المقسم^(١)، ومرابط للدواب، وبها سويقتان قاطع بينهما نهر بردى، وبها صيادة
السماك، والقلايون على بردى، ويذبح فيها كل يوم خمسة عشر رأس من الغنم
سوى ما يجئ من الشام، وبها عشر شراخية ليس شغلهم غير الطبخ، وبها
فرنان، وثلاثة حوانيت برسم الخبز التتورى، وبها الفواكهية، وليس لها قيمة

(١) انظر: تاريخ الصالحية، لابن طولون (٣٦٩/٢).

لكثرتها كالمُشمُش والتفاح وغير ذلك، وفيها حمام ليس على وجه الأرض مثله لكثرة المياه ونظافتها، وله شبابيك تطل على الأنهر، وهو بين النهرين لعله بردى وتورا، بل بين القنوات والبانياس فى الجهة الغربية قرب صفة المصافى، وخرّب وصار مقصفاً أرضاً لبنى القلوصى، ثم انهدم خوف المفاسد، وكان بها المدرسة للمحدث الديلمى الذى حددها نور الدين الشهيد، ولها أوقاف على قراء، وقراءة البخارى، ووعظ، ومؤذن، وفرّاش، وبوّاب.

وقال فيه التاج الكندى^(١):

إن نور الدين لما أن بنالى فى البساتين قصور الأغنياء
عمّر الربوة قصراً شاهقاً نزهة مطعمة للفقراء

وبها القاعة بناها نور الدين الشهيد على شعب الجبل -يعنى الشرقى- جميعها منحوتة بالأخشاب، سقفها نهر يزيد، وأساسها نهر تورا، ومنظرها من الغايات التى لا تدرك، وقبالها الجبل الغربى بذيله دف الزعفران، والشرقى بسرامة مثل الجنك، وأظن الشعراء فى وصفها.

قال ابن نباته:

بالجنك من مغنى دمشق حمامم فى دف أشجار تشوق بلطفها
فإذا أشار الشجر برأسه غنت إليه بجنكها وبدفها
وللصلاح الصفدى^(٢):

اتهض إلى الربوة مستمتعا تجد من اللذات ما يكفى
فالطير قد غنى على عوده فى الروض من الجنك والدف

(١) تاج الكندى، هو: زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة بن حمير بن الحارث، أبو اليمن، مرقى، نحوى، أديب، شاعر، ولد ببغداد وتوفى بدمشق سنة (٦١٣هـ). من آثاره: إتحاف الزائر، شرح خطب ابن نباته. انظر: سير أعلام النبلاء (١٣/١٢٤)، معجم المؤلفين (٧٣٩/١).

(٢) الصلاح الصفدى، هو: خليل بن أبيك بن عبد الله، أبو الصفاء، أحد الأديباء الشعراء، مؤرخ ولغوى، أخذ الأدب عن ابن نباتة وشهاب الدين محمود. من أراه: الوافى بالوفيات، غيث الأدب. توفى سنة (٧٦٤هـ). انظر: شذرات الذهب (١/٢٤٣)، معجم المؤلفين (٦٨٠/١).

ولبدر الدين بن حبيب الحلبي^(١) :

كم تحت جنك الربوة الفيحاء من دف زهت أزهاره بشنوفها
سقيًا لها من ربوة من حل فيـها أطربته بجنكها ودفوفها
ولشرف شعبان:

أوذ بأتى لو أرى الجنك ساعة وأنفق فيها كل ما أنا أملك
فليس لنفسى فى هوى الجنك مطلب مطلب ودعهم يقولوا فيه للصّب مهلك

قال ابن المزلق: ونقلت من خط الشرف القواس:

سر بى إلى الوادى وقف منتزها فالجنك قد غنت بها الأطيّارُ
لو لم يكن هو جنة المأوى لنا ما كان تجرى تحته الأنهارُ
ونقلت من حرير القيراطى قوله :

سقى الجنك منهل الرباب فشوقنا لطيب معالى أرضة ماله حصر
وحى يقطر الشام أنهارها إلى على شهدها للدمع من مقلتى قطر
وجادت سماء الغيث أرض سمائها غصون رياض الزهر آفاقها الزهر
فكم جاعنى منها نسيم ممسك وعرفها للقادمين بها القطر

وطلع الشمس الخياط ضفدع^(٢) مع ابن خلكان^(٣) القاضى إلى الربوة، فوجد
غلمان يعمون بثورى تحت النحوت المعروفة بالمنيقبة .

فأنشد:

لربوتنا وإد حوى كل بهجة فعيش الورى يحلو لديه ويعذب
تزف له الأنهار من تحت جنكة فلا عجبًا أنا نخوض ونلعب

(١) بدر الدين بن حبيب، هو: الحسن بن عمر بن الحسن، الدمشقى، أبو محمد، عالم مشارك
فى أنواع العلوم، ولد بحلب وتوفى بها سنة (٧٧٩هـ). من آثاره: أخبار الدول، مقامة
الوحوش. انظر: شذرات الذهب (٦/٢٦٢)، معجم المؤلفين (١/٥٧٥).

(٢) الشمس الخياط ضفدع، هو: محمد بن يوسف بن عبد الله، الدمشقى، أديب وشاعر، اعتاد
مدح أعيان الدماشقة، من آثاره: ديوان شعر. توفى سنة (٧٥٦هـ). انظر: الأعلام
(٨/٢٧)، معجم المؤلفين (٣/٧٨٣).

(٣) ابن خلكان، هو: أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن باول أبو العباس، فقيه،
شاعر، شارك فى مختلف العلوم، تولى قضاء دمشق وتوفى بها سنة (٦٨١هـ). من
آثاره: وفيات الأعيان. انظر: الوافى (٦/١٢١)، معجم المؤلفين (١/٢٣٧).

وأشده ابن خلكان رحمه الله تعالى أيضاً بقوله:

وسرب ظباء فى غير تخالهم بدوراً بأفق الماء تبدو وتغرب
يقول خليلى والغرام مصاحبى أمالك عن هذا الصباية مذهب
وفى دمك المظلون خاضوا كما ترى فقالت لهم: دعهم يخوضوا ويلعبوا
قلت، وعدت أبيات الآبار السابقة:

أود بأتى لو أرى الجنك ساعة وأنفذ فيه ما يحب ويطلب
وليس نفس فى سوى الجنك مأرب ودعهم على سمى يسبوا ويقشباوا^(١)

وزدنا فى مراعاة المثل، قال الشمس بن طولون فى نوازل الزمان:

وفى يوم السبت سادس عشر منه أى محرم سنة أربع عشرة وتسعمائة: ذهب
الشيخ عبد القادر^(٢) بن حبيب الصوفى الصفدى إلى الربوة، وكانت ملآنة من
الخلق، وشق فى سوقها الرعاع، ومعه جماعة يعملون بالكف والشباب^(٣).

قيل: كان العمار إلى ذلك الحد، ثم صارت وقعة قازان، فهدموا منها
المحراب فخربت، ثم أرسل ملوك مصر أن يعمروها فلم يقدوا.

وقيل: كان بها على حافة تورا تخوت للنزهة نحو المائة وعلى غيرها من
الأنهار، وكان بها قبة خضراء، ثم رحل من مشايخ الملك الظاهر بيبرس. وفيها
مكان يقال له: العاشق والمعشوق.

وأما المأذنة عند المنشار لصيق يزيد، باقية إلى الآن، وأما للمسجد فقد خرب والدور.

قال النعمى رحمه الله تعالى فى كتاب [الدارس فى الجوامع والمدارس]
فقال فى ذكر الجوامع: جامع الربوة.

قال الذهبى فى ذيله: فى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة فى شهر ربيع الأول
جدد جامع فى الربوة بخطبة وإمام ومؤذنين، وقال: جامع النيرب وهو بخطبة
وهو فى محل الربوة أيضاً.

(١) يقشباوا: يعبروا بالشىء ويلوموا عليه. انظر: القاموس المحيط، مادة [قشب].

(٢) عبد القادر بن حبيب الصفدى، هو: ابن محمد بن عمر، الشافعى، أديب، شاعر، له عدة
مؤلفات منها: سلك التوفيق بسواء الطريق، سلك العين لإذهاب الغين. توفى سنة
(٩١٥هـ). انظر: كشف الظنون (٢٦٨)، معجم المؤلفين (١٩١/٢).

(٣) الشباب ما يوقد به النار. انظر: القاموس المحيط، مادة [شب].

قال الحافظ ناصر الدين فى مسودة توضيحه: النيرب: قرية من قرى الغوطة، وهى قرية حنا من قرى دمشق من اقليم بيت لهيا، كثير المياه، كثير الأشجار، وبها جامع حسن تقام فيه الجمعة، ويقال فى شرقه قبر حنا: أم مريم عليهما السلام.

قال ابن شداد: وليست مريم بنت عمران، ولها مكانة. وفى تاريخ دمشق لابن عساكر^(١): أن الخضر عليه السلام يبات فى هذا المسجد ويصلى فيه، ويُرْوَى أن عيسى كان عليه السلام يصلى فيه.

وقال ابن كثير^(٢): فى سنة أربع وثلاثين وسبعمائه توفى أمين الدين محمد بن محب الدين بن محمد بن أبى العيش الأنصارى الدمشقى، وصلى عليه بالأموى، ودُفِنَ شمالي الجامع المظفرى بالسفح، وكان من التجار الأتقياء الأماجد، ودخل اليمن، وعمر تحت الربوة مسجدًا على حافة بردى، وتكلم على جامع النيرب، وعمر مطهرة إلى جانب مسجده، والسوق الذى هناك، وله بجامع للنيرب خزانات، وهو ميعاد حديثه، وعمل وقتًا فى المسجد فى الحديث قبيل صلاة الجمعة.

قلت: وبقيت مأذنته إلى يومنا هذا.

وأما القبة باقية وفيه نظر؛ لأن القبة لصيق الجامع، وفيه قبر مفطم، والمؤرخون ذكروا أنه دفن شمالي المظفرى فليتأمل.

وأما مبادئ الخراب؛ فمن تاريخ ما ذكره النعيمى فى مدرسة الأسعدية^(٣).

قال ابن قاضى شهبه^(٤) فى الذيل: وفى جمادى الأولى سنة عشر وثمان مائه خرب ثلاثة أماكن أحسن منزهات دمشق: الدهشة، وبستان النشوى على حافة تورا عند للربوة وبستان ابن جماعة بالمنزه، وهذا نقلت إليه إلى مدرسة للخواجة بن الأسودى، وتتفع الناس بها، وفرغت العمارة فى سنة سبع عشر وثمانمئة.

(١) انظر: تاريخ دمشق (١/١٤٥).

(٢) انظر: البداية والنهاية (١٥/١٨٢).

(٣) انظر: الدارس (١/٥٦).

(٤) ابن قاضى شهبه، هو: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن نزيب، الأسدى، تقى الدين، فقيه مؤرخ، مفسر، من آثاره: طبقات الفقهاء الشافعية، تاريخ ابن قاضى شهبه. توفى سنة (٨٥١هـ). انظر: كشف الظنون (١٢٧)، معجم المؤلفين (١/٤٣٥).

ويستفاد من كلامه فى تاريخ الخراب الباقي، وإلا فالنيرب حرقها القادر من الحصار سنة خمس وخمسين وخمسمائة، لكن لم تتلف بالكلية أو أنه تاريخ تلقها، والربوة^(١)، والدهشة - بقيت إلى هذا التاريخ، وهو عصر الثمانمائة .

قلت: وسبب الخراب فى هذه المحلات من الربوة وغيره كالنيرب - الواقعات ؛ كوقعة قازان، ووقعة ملك الأماق.

قال النعيمى فى الدارس^(٢) سنة (٥٤٣) نزل الفرنج على دمشق، وكان نائبها أمير الأمراء القر بن محمد غورى، والمدير لها نزل، ولم يشعروا إلا وملك الأماق خيم على أراضي المنزه، وما والاها، وزحف على البلد بخيله ورجله وكان معه نحو تسعون ألفاً راجلاً وعشرة آلاف خيالة، فخرج إليه معين الدين، ومحب الدين أنزل الثانى وابق فى مائة ألف وذلك يوم السبت فى شهر ربيع الأول، وقاتلوا قتالاً شديداً، وقُتِل شيخ المالكية القندلانى عند النيرب قرب الربوة، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الجلولى، وقتل نحو المائتين ؛ فكسر الكافر الملعون، وكف الله شره، والآن لم يبق إلا المرج على حافة الأنهار، والحدائق، والبساتين لأربابه من دمر والمزة، وإلى الآن لا ينقطع التنزه إليها، وليس فيه مكان عمارة، لكن أدركت النوفرة، وهى فى مكان تحت صفة العوافى غربها عمارة مكلفة نبات فيها أيام الصيف، ومقعد على نهر بردى شرقها، ومكان آخر لمقعد الأكابر غربى الربوة أيضاً، فخر به المتقدمون ولم يجدد، والنوفرة خربها بعض نرية من أنشأها محمد جلى القلوصى بفساد كان يقع، والمكان الآخر مثله، وخرب الجميع، وكان بها القبة الخضراء، ولم ندرك لها أثراً، وكان عين السخنة أدركتها، وعليها قبة صفراء والآن خربت وشنفت، ولم يعلم لها خبر، والعقبة خربت وكان محلها بين بردى والقنوات غرباً، وبقيت المأذنة عند يزيد، وهى الآن.

والحاصل: أن الربوة إلى الآن لها روحانية وهى لاتوجد فى غيرها وجرب

(١) الربوة: موضع على بعد فرسخ من دمشق، يحيط بها جبل، يقال: ليس فى الدنيا أنزه منه، ويجرى فيه نهر بردى. انظر: معجم البلدان (٢٩/٣).

(٢) انظر: الدارس (٨٤/٢).

فى عداها بأشياء، ولا يقع فى الجلوس فىها سأم أصلاً بل ينسى الإنسان همه
وغمه وجميع الأحوال، وعليه يقول مولانا الشيخ عبد الغنى قدس الله تعالى
سره^(١):

إن فى الربوة برءاً
فإذا ما كنت فىها
ولبعضهم وأجاد فى المقال:

سقى الوسمى سفح النيربين
دايات جفاها الغيث يوماً
حوى الشرفين نادبها فزفت
وصدر البان أشرح فيه صدرى
وأنتم مهدها كالشهد طعماً
فيالله من نور أراها
فياحادى السرى عج بالمطايا
وبلغ وادى القنات دمعاً
أعلل بالمنى قلباً عليلاً
وأشدد كلما قد لاح شرق

ليس يديه السلام
فعلى السأم السلام
وصال حيلها بالواديين
سقاها الغيث نمع المقتنين
بها الولدان بين الجنتين
بنسمة نشره فى الخافقين
وأرتغ فى رياض الربوتين
وأنظر حسن بهجتها بعينى
وعرج نحو مرج الغوطتين
سلام قليل شوق الجبهتين
وأشدد ناظراً للفرقيدين
سقى الوسمى سفح النيربين

ومن محاسن الشام: المقاسم داخل الربوة الذى ينقسم منها الأنهار، وأصل
بردى من منابع التوت، وإلى ذلك أشار البرهان القيراطى^(٢):

(١) الشيخ عبد الغنى، هو: ابن إسماعيل بن عبد الغنى بن إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم،
الدمشقى، الصالحى، من العلماء الأجلاء، ومن أفضل الأبناء، له معرفة بالنظم والنثر،
ويعد من الصوفية، من آثاره: الأسرار فى منع الأثرار، إيضاح المقصود فى معنى
وحدة الوجود، توفى سنة (١١٤٣هـ). انظر: عجائب الآثار (١/١٥٤)، معجم المؤلفين
(١٧٦/٢).

(٢) البرهان القيراطى، هو: إبراهيم بن شرف الدين بن عبد الله بن محمد، المصرى، من
الشعراء الأبناء، من آثاره: ديوان شعر يسمى مطلع النيرين، توفى سنة (٧٨١هـ). انظر:
إيضاح المكنون (١/٢٢٥)، معجم المؤلفين (١/٣١).

عندى لأهل الشام فرط صباية فسقى حماها الرحب صوب غيوب^(١)
وعيوننا لفراق ممشها حكى جريان أدمعها عيون التوت

ثم تمر على قرية الزبدانى^(٢) كالبحر إلى أن تلتقى بعيون الفيحة^(٣).
قلت: وهى أول العيون، وقيل: من باب ثلاثمائة عين تجرى إلى القبلة.
قال: وارتويت من أعذبها ورأيت غالبها.

وهو أبعد مقسم، ثم بعده توراً أول جريانه فى الربوة بالجبل الشرقى، وبردى
بطنه، ونهر البانياس^(٤)، وفوقه نهر القنوات، ونهر المزرة، وبعده الدراني بذي
الجبل الغربى، وينزل الماء فى المقاسم نحو عشرين درجة؛ كالشادروانى الذى
رؤيته تزيل الأحزان، وما أطف قول القاضى صدر الدين الأدمى قوله:

وما ذكرتكم إلا وضعت يدي عليه حران قلبى قل ما بردا
وما تذكرتكم والدمع يسرقنى إلا تحدر من عيني ما شردا
قالوا: فؤادك برد عن محبتهم فقلت: نار الهوى لا تنطفى أبدا
بردت قلبى عن الأحباب مذ زحلوا بما يزيد على تورى وما بردا
وقال صاحب الإنشاء العلاء بن فضل الله:

انزل ببانياس فى نهرها شرب يحاكبه عروس السرور
واسمع حديث الماء فى جريه فإنه يشفى غليل الصدوره
وجمعهم الشيخ شعبان الأبارى بقوله وأجاد:

شوقى يزيد وقلب الصب ما بردا وبات يأسى من المعشوق حين غدا
ومدمعى قنوات والعذول حكى تضوراً يكون فى عشقه حدا
على منيفه بالجنگ جاوبها شباية كم لها فى عاشق حسدا
فالبدر جبهتها والدف ربوتها وحبها مات فى خلخالها كمدا

(١) غيوب: المطر الذى يأتى من جمعه البحر. انظر: القاموس المحيط، مادة [غيب].

(٢) الزبدانى: كورة مشهورة بين دمشق وبعليك، منها يخرج نهر الشام. انظر: معجم البلدان
(٣/١٤٦).

(٣) الفيحة: قرية بين دمشق والزبدانى عند مخرج نهر برداى. انظر: معجم البلدان
(٤/٣١٩).

(٤) بانياس: نهر مشهور فى الشام، وبه ميناء مشهور. انظر: معجم البلدان (١/٣٩٣).

ومن محاسن الأمير بن درباس^(١):

والنهر قد عشقَ الغصون ولم يزل
حتى إذا فطن النسيم فجاءها
وأتى عليه مهيمناً بغنائيه
ومن عقود بن لؤلؤ الذهبي^(٢):

ما فتَّح النور إلا اشرفاً النور
ياجنة ودروع الماء ينسجها
ولا بن قرناص^(٤):

وتحدث الماء للزال مع الحصى
فكأن فوق الماء وشياً ظاهراً
وقال سامحه الله:

أيا حسنها من رياض غدا
مشى الماء فيها على رأسه
جنونى فنوناً بأفانها
لتقبيل أقدام أغصانها

وقال أبو القاسم بن عليّ في منار الأغصان في الماء:

انظر إلى الأغصان كيف ترقرقت
معكوسة الأكال تحسب أنها
فبدا بها شبح الغصون الميس
قامت على الأيدي له والأرؤس

(١) الأمير ابن درباس، هو: عمر بن عيسى، الحفصي، أبو علي، أمير أندلسي، من الأمراء

الشعراء، من آثاره: ديوان شعر، توفي سنة (٦٤٦هـ). انظر: معجم المؤلفين (٢/٥٧٠).

(٢) حيدته: أماله. عتبه: الملامة والعتاب. انظر: القاموس المحيط، مادة [حاد]، [عتب].

(٣) ابن لؤلؤ الذهبي، هو: يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله، الدمشقي، بدر الدين، من شعراء

الدولة الناصرية بدمشق، من آثاره: ديوان شعر، توفي سنة (٦٨٠هـ). انظر: كشف

الظنون (٧٦٨)، معجم المؤلفين (٤/١٧٨).

(٤) ابن قرناص، هو: إبراهيم بن محمد بن هبة الله بن أحمد، الخزاعي، شاعر وأديب، من

آثاره: ديوان شعر، توفي سنة (٦٧١هـ). انظر: كشف الظنون (٧٦٧)، معجم

المؤلفين (١/٧١).

وأبدع منه قول المنازى من قصيدة^(١):

نزلنا دوحه فخنّى علينا
وأشربنا على ظمأ زلالاً
وما أحسن قول ابن المشد:
والرروضُ بين تكبّر وتواضع
وقول ابن النبيه:

تبسم ثغر الزهر عن شنب القطر
فإن رقى واعتلّ النسيم صيباً
توسوسه الأغصان عند هبوبه
يحادئ عن الورد الجنى فإبنى
ويبسمُ عن ثغر الأقاح بنفسج
ولابن تميم^(٢):

والنهرُ قد علقَ النسيمَ بقلبه
فتراءُ يجرى لائمًا أقدامها
ومن لطائفه:

ونهر خالف الأهواء حتى
إذا رفت على الأغصان ألفت
ولابن لؤلؤ وفي نسخة للصلاح:

وحديقةً مطلولةً باكرتها
يتكسر الماء الزلال على الحصى
والشمس تشرق فوق أزهار الربا^(٣)
فإذا جرى بين الرياض تشعبا

(١) المنازى، هو: أحمد بن يوسف، السليكي، أبو نصر، وزير، كاتب، شاعر، من آثاره: ديوان شعر. توفى سنة (٤٣٧هـ). انظر: البداية والنهاية (٥٤/١٢)، معجم المؤلفين (٣٢٨/١).

(٢) ابن تميم، هو: محمد بن يعقوب بن علي، الحموي، مجير الدين، من الأمراء الشعراء، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة (٦٨٤هـ). انظر: معجم المؤلفين (٧٧٦/٣).

(٣) الربا؛ جمع ربوة: كل ما ارتفع من الأرض. انظر: القاموس المحيط، مادة [ربا].

وله:

والنهرُ كالْميرِدِ يجلو الصَّدَا
ومن نكته البديعة:

ونهر إذا ما الشمس حان غروبها
وأينا الذي أبقت به من شعاعها
ومن معانيه:

وحديقة ينسابُ فيها جدولٌ
يبدو خيال غصونه في مائها

ومن ملحه:

ياحبذا النهر الذي أمواجه
في الحب أبلق غير أن عيوننا
وقال محيي الدين قرناص:

فديتك إن روضتنا تجدها
يعاتقك القضيب بها سروراً

ومن لطائفه:

ولما تبدى النهر عند عشية
عابنته مثل الحسام وظلُّه
والروض يخضع للصبا والشَّمال^(٣)
مثل الصدى والرشح مثل الصيقل^(٤)

وقال رحمه الله:

ياحسنه من جدول متدفق
مازلت أعوده عيوناً حوله
يلهى برونق حسنه من أبصرا
خوفاً عليه أن يصاب فيعثرأ
حتى هوى من شاقق فتكسرا
فأبى وزاد تمادياً في جريه

(١) هريش: أى يثير الجدل والصراع بين الناس. انظر: القاموس المحيط، مادة [هرش].

(٢) أبلق: هو ما كان فى لونه سواد وبياض. انظر: القاموس المحيط، مادة [بلق].

(٣) الصبا: ريح تأتي من ناحية الشرق. الشمال: ريح تأتي من ناحية الشمال. انظر: القاموس المحيط، مادة [صبا]، [شمل].

(٤) الصيقل: الشيء المصقول اللامع. انظر: القاموس المحيط، مادة [صقل].

ولابن قرناص الحموى:

لما أتاها وهى فى أطرافها
من خوفه فى صدره وجرى بها

سرب النسيم جلا الغصون بطفه
ورمى بها نحو الغدير فضمها

ومما قيل فى النهر عند الأصيل:

وعليه من ذهب الأصيل طراز
عكن الخصور تهزها الأعجاز

النهرُ قد رقتْ غلالةٌ صبغِه
تترفق الأمواج فيه كأنما

ولبعضهم:

معاتبًا إذ رقى للشارب
ويضحك الزهرُ على شاربى

وروضة قال لنا نهذها
أكونُ فى خدمتكم جاريًا

وما أحسن ما قاله بعضهم:

وأظهرَ ما أخفى لنا من حليِّه
من الطلِّ عقدَ لاح فى جوهريه
فأثرى الثرى بالنثر من عسجديه^(١)
تولى شعاعُ الشمس صقلَ صديهِ

نديمى ماس الآس فى سندسيه
ولاح بجيد الغصن والصبحُ طالعُ
وألقى الصخر فى فضه النهر نثره
هو السيف إن يصدأه ظل غصونهُ

ولابن النبيه عفى الله عنه قوله:

قد دب فيه عذاره للبان^(٢)
من فضةٍ والزهرُ كالتيجان

والنهرُ خدُّ بالشعاع مورِدُ
والماءُ فى سوق الغصون خلاخلُ

ذكر بسائتيها وماحولها: فباتى ذكرها فى الأزهار وهى كثيرة جدًا.

قيل: تبلغ نحو خمسة عشر ألفاً.

وأما ذكر الأزهار فله فائدة؛ فإنه لا يخلو من ذكرها فائدة من نحو خاصة،
و مضرة، أو بعددهما ألوان، وخصوصًا تغزل الشعراء بها.

(١) عسجديه: هى ركاب الملوك المزينة بالدرر والجواهر. انظر: القاموس المحيط، مادة [عسج].

(٢) عذاره: خصلة الشعر التى تحاذى الأذن. انظر: القاموس المحيط، مادة [عذر].

فصل المدارس

ذكر المدارس: من المشاهير ومايلحقها من الخوانق، ومن الأجمال، والاختصار: الدلانيه بالصالحية، والماردانية، والعمرية، والضيائية، والعلمية، والناصرية، والباسطية، والركنية المحاسنية، والقيمرية، والحافظية، والشبلية، والحامية الأشرفية، والمرشدية النظامية، الخانقاه الحاجبية، الإبراهيمية المقدمية، القلانسية، الأرصدية، الأرمدية الغربية، الأرمدية الشرقية، العينية البدرانية، الأرابكية المعظمية، الخانقاه الفرنسية، الخانقاه الأهرمزية المنظورية الجهار كسينه، الصارمية الترازية، الخانقاه المسرفية، الأخميمية الزاهرية، الجمالية، التهامية، الخانقاه، الخيلانية، اليعمورية، الصاحبية، العمادية، الأستدارية، البزورية، الحنيفية، المرشدية، الخديجية، الرحبية، الأشرفية، الناصلية.

وبالربوة: المنجية على قناطر أربع درس بها العيني الصالحى، وكمال بن طولون تلميذه شرقى دار العدل، والآن لا أثر لها، ولعلها على بردى.

قال ابن طولون^(١): وكان بابها من جدار السوق الكبير لا الصغير، فعليه كان السوق من عند الشورى وبردى، وكانت القناطر على بردى من غير شك، وكان يطل على بردى السلعوسية، وهى عمارة بديعة بالبلاط الأبلق، وبركة ماء، وواجهة عظيمة من الحجر الملون مطلة على نهر بردى، ولعله المنجيه كانت على نهر بردى كالجامع المعلق النفسية، القرصية، الكمدوسية، النورية، التتكرية، المصابنية، المقعدية، الأسدية، الأصفهانية، الأقبالية، الأمجدية، الأكرية، الأمينية، البدرانية، البهنسية، النقوية، الجاروخية، الجلجية، الخنصية، الخيلية، الرماغية، الدولعية، المركية، الجوانية الشامية، الجوانية الشامية البرانية، الشاهينية، الشرهنية الصالحية، الصارمية، الطيبية الظاهرية، الطبرنية الظاهرية، الجوانية العزيزية، الجوانية العزراوية، العادلية الكبرى، الظاهرية البرانية، الفارسية، الفخرية، الفلكية، الفلجية، القوصية، القواسية، الفتحية،

(١) انظر: تاريخ الصالحية (١/١٦٥).

القيمرية، الكروسية، المجاهدية، الكلاسية، الناصرية الجوانية المنكلاسية
المجاهدية، البرانية الناصرية، الجوانية، النجيبية، الأسدية، البدرية، الإقبالية
المباشية الجلالية، الجقمقية، الجوهرية، الخاتونية البرانية، الخاتونية بمحلة
حجر الذهب، الدماغية الركانية، الذنجارية، الشيبانية من الخوانق الصادية لصيق
الأموى، الطوفانية، الطومانية مقابل العسرونية المقر خشاهية، القجماسية،
القصاعية، الخانقاه الأحمديّة، المعينية، القيمازية، المنجكية، النورية الكبرى،
النورية الصغرى، المالكية البراهنية، الصمصانية، القلاصية، الجوزية،
الجاموسية، الجنتلية، التتوخية، المسمارية، الصدرية، المنجانية، الدخوارية،
اللبودية، الدنشرية، الخوانق الأسدية، السمساطية الأسدية. أيضًا الليمانبة
اللجكية، الإمكافية، الخانقاه الشبلية، العزية، الخانقاه الخامية الخاتونية الزوزانية،
العكرانية الداودية اليوسية من الخوانق، شناسية، الرهنية الشومانية،
الطواوسية، الخانقاه الكومانية، المنجكية النحاسية، النجمية النهريّة، الطوويسية
الخانقاه، المدرسة الفلكية، المدرسة الطالوتية، الحرية، الأفريدونية التخمية،
الجنديرية الاكزية، السمرقندية، الأصفهانية، المؤيدية، والبيرمية، والزنجيلية،
التفراية، الوطينية الطبية بثلاث باءات من تحت وغير ذلك وأكثر والله أعلم.

وأما الزوايا والمساجد فلم نذكرها لكثرتها.

فصل جوامعها

ذكر مشاهير جوامعها: السلمية بالصالحية، الخاتونية، الجامع الجديد، المظفرى، الماردانية، الحاجبية، العيشية، النيربية بها أيضا الحاجبية بها الجامع البرديكى، المنجكى الميدانى، المنجكى بالسمة الدرويشية، السنانية، المرادية، الصابونية السباهية، الدقاق بمحلة القبيبات، السقيفة، المزانى، وجامع القرب، جامع خلخان، والآن خراب .

القعاطة ليلبغا تكزباى، جامع ابن الرفاعى العبدية عند خان الباشا الشامية الأشرافية أعنى -التوبة- جامع الجوزة عند العونية للسليمانية، جامع التوروزى الحيواطية، جامع البزورى، جامع المساوت، جامع بنى أمية، جامع المبروم خراب، جامع صالح أغا، جامع حسان، جامع الشيخ مراد، جامع النطاغية، جامع الحشر، جامع الأغا بالمناخية، الجامع النورى بالقلعة، جامع جراج بالقربية، جامع المصلى، كلها خطب، والنحاسية، والأفرمية خرب، والعيشية، والنيرب، والريحاوى أعين الروم، والنحاس بالصالحية، وجامع الركنية وبطلت من زمان، وبالشرف: جامع فى الأولى والأعلى والله أعلم.

ومن المنتزهات التى كانت سابقًا: محلة الشبلية، وبها دار السبسط ابن الجوزى وغيره، وحدها إلى غيضة أبى المزلق، وفيه حمام، وحوانيت ولصيق الحمام حانوت مسكفانى.

قال الحافظ ابن عبد الهادى: وأدركت على باب الحمام حانوتًا معدًا لبيع العدس المطبوخ يطلبونه من الشام، والطريق متصل إلى دمشق بالناس، والعمائر، والحوانيت، وخرب ذلك فى زماننا وزمانه فى عهد الثمانمائة.

قال: وحرارة مقر، وهى محلة طاحون الشنان، وهى محلة عظيمة حتى إنَّ فيها بيوت الكبراء ؛ مثل بيت ترستمر .

قال: وأدركت السبع قاعات، وهى عامرة، وكان عند الطاحون حمام، ومسجد، ومئذنة، وتسمى محلة المنطور.

قال ابن عبد الهادى: وكان بها دار الحافظة المحدثه كريمة، وتغزل بها الشعراء القدماء، وأما السهم: فتقدم ذكره.

ومحلة جامع النحاس شرقى الركنية، ومحلة الركنية، والآن خراب، وقريب منها محلة الزنبية والصاحبية.

ويقال لها: الخميسات، وبهما سوق، ولكن الخراب أغلب .

وأما محلة قصر اللباب، وتقول العامة: قصر اللبان.

قال ابن عبد الهادى: أدركت بها جماعة من جملتهم بنوطيخ .

وقال فى كتابه: [وقف الشبلية]: إن حدها أى -الشبلية- التربة والشرقى

الجرن اسم بستان، لأنه نبت من غير زراعة، وآخرتها مقراً.

قال ابن عبد الهادى: ومحلة مقراً ؛ أدركنا آثارها، ومنها السبع قاعات،

ودور كبار عليها آثار النعم، والله أعلم .

وكان شرقى الطاحون دار جديدة، وفيها حمام، وهى متسعة، وكان باقىا بها

بيت الذهبى، وبيت الصائغ، وبيت سديد وغير ذلك، وهذه كلها مسكونة استقضى

الخراب جميعها عليها ؛ فسبحانه وتعالى.

ومن المنتزهات المباركة: سفح قاسيون⁽¹⁾، وقد ورد آثار فيه كثيرة عن كعب.

وروى منبه قال: وفيه آثار قديمة، وأكثر العلماء كانت توصى بالدفن فيه.

وقيل فى كتب السابقين: تسمى هذا المحل بالفراديس، وفيه من العلماء

والأولياء، والأنبياء مالا يحصى .

وأما العلماء فمن الأجلء والأعلام مالا يُعد مثل: ابن قدامة، موفق الدين،

وقبره ظاهر يزار، وأبى عمر بن قدامة، وكذلك كان ظاهرًا وخفى الآن، والشيخ

ابن مالك، والسبط ابن الجوزى صاحب مرآة الزمان، والقاضى ابن خلكان،

والإمام الشرفى الحجاوى صاحب الإقناع فى مذهب الحنابلة، والقاضى على

المدينى المرداوى صاحب "شرح المقنع"، والقاضى ابن مفلح صاحب "الفروع"،

وابن ابنه صاحب "المتع" شارح "المقنع"، والعينى الحنفى الصالحى، والحافظ

ابن العارى، والقاضى ابن المنجا شرقى الداودية، وشيخ الإسلام الشويكى

الكبير، والسيف الأحمدي، والفخر البخارى، وابن قندس الحنبلى، والصلاح بن

عمر، والشمس ابن عمر، والقاضى سليمان بن حمزة، والقاضى ابن عبادة،

(1) سفح قاسيون: هو جبل مشرف على مدينة دمشق، فيه عدة آثار للأنبياء، لذلك فهو جبل

مقدس، وفيه أيضًا مقبرة آل الصلاح. انظر: معجم البلدان [٣٣٥/٤].

والشيخ عبد القادر العسكرى، والشهاب العسكرى، والقاضى ابن الحبال،
والحافظ ابن عبد الهادى جمال الدين يوسف المقدسى، وأكثرهم من الحفاظ
والمحدثين.

ومن الأولياء: سلطان العارفين ابن عربى، والحرير الصوفى، والشيخ
العمرى بالجسر صاحب الديوان المشهور، والشيخ العرودك صاحب الديوان
المشهور، والشيخ الإمام صاحب الأحوال أبو بكر ابن قوام .

وأما ما فيه من أماكن الإجابة: المقام الذى يقال له: مغارة الدم^(١)، والشيخ
الأمير قيمر صاحب المدرسة بدمشق، والمارستان بالصالحية، ومقام أهل
الكهف، ومقام الجوعية، وقبر ابن قوام، وقبر الشيخ ركن الدين، ومقابله للشباك
قبر الحافظ ابن المتين، وقريب من قبر الفارقى الشافعى.

وأما الزوايا: فإنها فيه لا تحصى والأزبكية خراب ماعدا زاوية الشيخ
العرودك أبو بكر -قدس الله سره-، فهو فى كل ليلة يصير فيها ذكر، وكان
قبلها زاوية الداودى الولى المحدث صاحب الأوراد وولده شمالى الزاوية.

وقيل: إن الدعاء عند قبره مستجاب ، وولده المحدث شارح الأوراد وتربته
المشهوره داخل الشباك الحديد وبطل الذكر منها لخراب تلك المحلة فى عصر
الخمسين بعد الألف.

وفيه من العلماء شيخ النحاة ابن طولون عند الزاوية العجمية، وهى من
الزوايا المشهوره، والآن ليس إلا الجدار، وقريب منها الخوازمية للشيخ الولى
الخوازمى، والأنجبية كانت للشيخ محمد الأنجبنى، وكلها يقام فيها الأذكار
والأوراد، وبطل ذلك، وسابقاً الصوابية، كانت زاوية، بها الشيخ محمد الصوابى
وذكرها فى المدارس.

ومن العلماء: البهار بن الخضر الفقيه المحدث، ولد ابن تيمية المحدث،
والحافظ ابن المحب شارح البخارى، والعارف المحدث الحافظ عبد الرحمن ابن
داود الحنبلى، وغير ذلك من الأعلام مما لا يحصى .

وأما جوامع الخطبة بها الآن: فالجامع المظفرى، والمحمدية، والسليمية،
والخاتونية، والماردانية بالجسر الأبيض.

(١) مغارة الدم: قرية بدمشق، تقع فى محلة الصالحية. انظر: معجم البلدان (٥٢٧/٢).

محلات الشام :

وأما محلات الشام العامرة: تقدم ذكر الصالحية التي من زمن أبي عمر المقدسى، ومحلة الجسر الأبيض، وقبلى دمشق الميدان، وهو كثير الزحام بالناس عامر جدًا، وأما محلة برج الروس إلى عند العونية فصار غالبه خرابًا، ومحلة الربوة، وأسواقها كلها خاصة بالناس.

وأما الصوايح^(١): بدمشق فأعظمها السنانية، ثم باب البريد، ثم المناخية، ثم العمارة، ثم الشاغور، وغير ذلك لا يُعد؛ لأنه لا يبلغ في الكثرة ذلك، ومُنذنة الشحم، لكن ليست مثلها، وقد تغزل فيه الشعراء قديمًا وحديثًا.

وما أحسن قول الأديب إبراهيم حلبى السفرجلانى الشافعى^(٢):

يا صاحبي أنخ المطـ	سـى بقايسون سقاه وادق
وتضاحكت فى تربتيه	قبورُ أزهار الحدائق
ولقد كرعنا فيهما	فى مورد العشاق رائق
ونزلت روضنا اينعت	ثمراته بالحسن فائق
وشممت من عرف الخزا	مى ما يطيب لكل ناشق
ونعمت فيه بعارض الر	يحان فى خيم الشقائق

وله عفى عنه قوله:

نظر البنفسج فى الشقيق مؤثرًا	فارتاع حتى اتهل ماء جماله
فندا يروض دره ياقوته	ويزيح أنجم بدره بهلاله

ومما يتعلق بالسفح محازيًا قولى:

سقاه من قاسون وادق	وكساه تيجان الشقائق
وكساه حلة سندس	فدخلها ببرد ووادق ^(٣)
فلكم رشفنا فيه صفو المـ	زن فى كأس العقائق

(١) الصوايح: من صوح، وهو: ارتفاع الصوت، والمقصود: المباني العالية مثل المآذن.

وتستخدم لرفع الأذان، والنداء للجهاد، وغير ذلك من الأمور الهامة.

(٢) إبراهيم حلبى السفرجلانى، هو: ابن محمد بن إبراهيم بن عبد الكريم، الدمشقى، الشافعى، شاعر وأديب، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة (١١٢هـ). انظر: معجم المؤلفين (٥٥/١).

(٣) الوادق: المطر. انظر: القاموس المحيط، مادة [ودق].

ولكم علونا فيه من
لم ألقى بهجتَه ولا
لازال ريان الربا
وله أيضا:

أفنى فؤادى الفرام والكمد
وبت أرى النجوم مرتقبا
من أجل بدر أقله غصن
يكاد من شدة اللطافة أن
شويدن لو مشى على كبدى
وعيل صبرى وخلقى الجأذ
حتى كأن الهرير يرتصد
يحلو به فوق غصنه الميذ^(١)
ينضم منه النطاق ينقصد
لما أحسن بمشيه الكبد^(٢)

ومن محاسن الصالحية: قبة النصر على رأس الجبل، وهو مكان نزيه مطل
جدا لا أعلى منه، وهى قبة لها ثلاثة أبواب، وشباكها بينهما محراب مكتوب
عليه (الله حسبا)، أنشأها الملك الناصر رحمه الله، يرى منها جميع الشام
ونواحيها، والأنهار كخيوط الفضة، وهى فوق مغائر شداد، والناس يخرجون
إليها للنزهة، ويتعجبون من زيادة العلو والإشراف، ولها ثلاثة طرق يصعد إليها منها.

وقد ذكر القاضى حسين بن العدوى الشافعى قصيدة رقيقة لطيفة وهى قوله:

وليل أدنا فضل قاسون بيننا
فلم ندر إلا الفجر صار دليلنا
وفينا هداة للطريق وقادة
فسرنا فلا والله لم ندر بالذى
ومنذ ركبنا الجو حتى كأننا
فلما وصلنا المستغاث أغاثنا
ففزنا وكل نال ما كان ناويا
إلى أن هبطنا قبة الملك الذى
رأينا بها عقد الثريا معلقا
فكادت قلوب السامعين تطير
إلى سفحه والسفح فيه نغير
لهم كل فضل فى الورى وصدور
قطناه بعد المشى كيف يصير
سماء نجوم والسحاب تسير
به الغيث حتى غوثنا لمطير
وفزنا بوقت حسنه تشهير
تسمى بنصر منذ أعان نصير
وعين الدرارى النيرات تسير^(٣)

(١) الميذ: المائل. انظر: القاموس المحيط، مادة [ميذ].

(٢) شويدن؛ تصغير شادن؛ وهو ولد الطبي. انظر: القاموس المحيط، مادة [شدن].

(٣) عين الدرارى؛ جمع للرى؛ وهو للكوكب المضىء. انظر: القاموس المحيط، مادة [در].

فلم أر برجًا قبله حل منزلاً تشير إليه الناس وهو يشير
فأعجب شيء أن تراها مقيمة تراها بنات النعش وهى تسير
وعدنا فحيا ناحياً فضل سجها بريح لها وقع الغمام صرير
إلى أن رمتنا بعد عالى مكاننا إلى مغر منها المقام غرور
وجننا حماة مطمئنين أنفا على أن مرقى المكرمات عسير
وهى من المحاسن، ومن محاسن بيت لهما^(١):

قال ابن المزلق: ومن محاسن دمشق والعنابة، وهو مكان مبارك يقال: حواء أقامت فيه، نقل المؤرخون أن حواء مكثت فى بيت لهما، وأدم فى بيت الأبيان، وهابيل فى سطرا، وقابيل فى قونية، وكان هابيل صاحب غنم، وقابيل صاحب زرع، وقصتهما مشهورة ذكرها الله تعالى فى القرآن.
وأما العنابة: فهى كما قال ابن المزلق: محلة عظيمة مشهورة، ويأتى ما ذكر من مدح العناب فى ذكر أشجار دمشق فى آخر الكتاب .
ومن محاسن الشام: سطرا^(٢).

وفيه يقول ابن خطيب دارباً - رحمه الله تعالى -:

خليلى إن وافيتما الشام بكرة وعانيتما الشقراء والغوطة الخضرا
قفا وأقرأ عنى كتاباً كتبتّه بدمعى لكم مقراً ولا تنسيا سطرا

وما أحسن ما قاله القاضى ابن عيني^(٣):

ألايت شعرى هل أبيتن ليلة وظلك يا شقرا على ظليل
دمشق فلى شوق إليها مبرخ وإن لى واش أو ألخ عذول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل
بلادها الحصباء در وتربها عبير وأنفاس الشمال شمول

والحاصل كلها تغزل فيها الشعراء قديماً وحديثاً.

(١) بيت لهما: قرية مشهورة بغوطة دمشق. انظر: معجم البلدان (١/٦١٩).

(٢) سطرا: من قرى دمشق وبها كثير من منتزهات الغوطة. انظر: معجم البلدان (٣/٢٤٨).

(٣) القاضى ابن عيني، هو: عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد، الحنفى، زين الدين، له اشتغال بالأدب والنحو، بجانب علم الأصول، من آثاره: شرح الألفية لابن مالك فى النحو، شرح المنار فى الفقه، توفى سنة (٨٩٣هـ). انظر: معجم المؤلفين (٢/٨٥).

قال ابن المزلق: ومنها منتزه اليلكى يجتمع الناس فيه أيام السفرجل ، وهو مزهر ويسيبون الماء تحته، ويوقدون فى ظلمة الشهر قشور البيض كالمرج، ويعلقون قشور النارج فى الأشجار مشعولة، ويفرقون الخام فى البستان الحاجب، ويقطعون أوقات من اللذة.

قال الشيخ علاء الدين بن الشرف الماردىنى:

انظر إلى يلكِ أزهدتِ ازاهرةُ فرويتهُ بالزهور قد تعيَّنتِ
أشرفتِ الأرضُ بنور ربِّها وأخذتِ زخرفها وازينتِ

قال ابن المزلق وانشدنى بدر الدين:

لله من يلكِ بديع حسنه قد ضمَّ شملى بالذى أهواه
مازال يفرشُ لى بساطاً أخضرًا فرعى الإله رياضه وكلاه

وفيه يقول أبى قرناص:

ويلكُ بدرهُ فيه منارةُ يطيبُ بها الندامى والمدام^(١)
ويانور المتيم إذ تغتت حمائمهُ ويسقيكُ الفمَّامُ

ومن قوله فيه:

قد أتينا نفى زيارة يلكِ فحباتنا بالجود والإكرام
ناولتنا أيدي الغصون ثمارًا أخرجتها لنا من الأحكام

ومن المحاسن: غيضة السلطان وتسمى غيضة حمد، وقفها على الجامع، وهو مغض من قديم الأزمان، مشتبكة، وفى أطرافها مروج يجلس عندها بولا يدخل لداخلها إنسان من كثرة المهالك الجوانية، ويخرجون إليها للنزهة وصيد السمك.

ومن محاسن الشام، الغوطة^(٢):

وهى، كما قال القزوينى^(٣): كورة حقيقتها دمشق، وهى كثيرة المياه خضرة الأشجار، ومتجاوبة الأطيوار، مونقة الأزهار، ملتقة الأغصان، مخضرة الجنان، استدارتها ثمانية عشر ميلاً، كلها بساتين، وقصور، يحيط بها جبال عالية من

(١) المدام: الخمر. انظر: القاموس المحيط، مادة [دام].

(٢) الغوطة: بساتين دمشق، وتجرى فيها عدة أنهار، منها: نهر بردى وتعد من أنزه بلاد الدنيا وأحسنها. انظر: معجم البلدان (٤/٢٤٨).

(٣) انظر: آثار العباد، للقزوينى ص ٢٠٩.

جميع جهاتها، ومياها خارجة من تلك الجبال، ويمتد في الفوة عدة أنهار، وينصب فاضلها في أجمة هناك.

والغوطة كلها أنهار وأشجار متصلة قل ما يوجد بها مزارع، وهي أنزه بلاد الله وأحسنها.

قال أبو بكر الخوارزمي^(١): وهي أنزه أماكن الدنيا.

وقال القزويني: أخذت الجهات الثلاث التي هي صغد سمرقند^(٢)، والأبله^(٣)، وغوطة دمشق ودرتها كلها؛ فرأيت الغوطة أحسن منهما بكثير.

قال في آثار العباد: ومن محاسن الشام: خزين الثلج بقريه من قرى الشام، يقال لها: منين، يخزنوه من العام إلى العام، ويحمل منه للقاهرة، وماء يسكن وجع الأسنان.

ولابن عباد قوله فيه:

أحمل الثلج فاتبسط للسرور
فكارب الماء صاهرت
وأخذه أحمد بن علي العلوي فقال:
هواك من الدنيا مضرك والذي
فزرني وبادر يوم ثلج كانه
ومن محاسن أبي الفتح:

وجعلنا الزمان للحب سلكا
وشربنا مداماً وجعلنا
فكان المياها تنثر كافو
وإليك لمشتاق كجفن إلى الغمض
نماتم كافور نثرن على الأرض
قد نظمنا السرور في عقد أنس
وشربنا مداماً وجعلنا
رأ علينا ونحن نفتت مسكاً

(١) أبو بكر الخوارزمي، هو: محمد بن موسى، أبو عبد الله، مؤرخ، رياضى، فلكى، كان يتولى خزانه كتب الحكمة للمأمون، من آثاره: تقويم البلدان، توفي سنة (٢٣٥هـ). انظر: الفهرست (٢٧٤/١) معجم المؤلفين (٧٤٢/٣).

(٢) سمرقند: بلد مشهور من بلاد ما وراء النهر، قيل: بناها ذو القرنين. انظر: معجم البلدان (٢٧٩/٣).

(٣) الأبله: بلدة على شاطئ دجلة، تتبع مدينة البصرة، وقيل عنها: من جنان الأرض. انظر: معجم البلدان (٩٨/١).

أخذه ظافر الحداد^(١):

ويوم ضاحك ييكي ضعيفاً معاًيد المنك
كان الريح تنثره على الأرض وفي وشك

وينبت في الثلج الريباس يسكن الحرارة، ويقوى المعدة، ولا ينبت إلا في الثلج، وهو نافع من الإسهال، وهو في جبال الثلج أمرياريس، والثلج محمود للهضم لكن يهيج السعال، ومضر للمعدة، ومع ضرورة شربه قليلاً قليلاً يصلح للأمزجة الحارة، وهو يطلق البطن ثم يعقله.

ومن محاسن دمشق، المرج : وأوله الوادي التحناني ،وأخره البحرة.
ويقال : إنه يشتمل على ثلاثمائة قرية وستين قرية، تزرع فيه الحبوب والغالب الشعير.

وفيه يقول ظافر الحداد :

كان في سنابل حب الحديد وقد سارفته من أباتها
كبابيس مطفورة زينت وأرخصى أفاضل خيبتها
ومن محاسن السلامى قوله^(٢):

يا حبذا سنبله تبدو لعيني المبصرة
كأنها لؤلؤة مطفورة من غبرة

والبحرة: يصب إليها مياه دمشق كلها، وبها مراكب صغار، والسماك والطيور فيها كثيرة، ويقصدونها لصيد السمك، وهي عميقة جداً، ولا يعلم قرارها إلا الله كذا ذكر ابن المزلق.

ومن محاسن دمشق: للجامع للشريف الأموى: ولا يوجد في أقطار الأرض مثله.
قال في الدارس^(٣): وهو أول جامع صليت فيه الجمعة في دمشق، وفيه مدفن رأس سيدي يحيى عليه السلام، ونبي الله شيث عليهما السلام.

(١) ظافر الحداد، هو: ابن القاسم بن منصور، الجذامى، أبو بصر، شاعر، من آثاره: ديوان

شعر، توفى سنة (٥٢٩هـ). انظر: وفيات الأعيان (١/٢٤١)، الأعلام (٣/٢٣٦).

(٢) السلامى، هو: محمد بن عبد الله بن محمد، المخزومى، القرشى، أبو الحسن، من شعراء

العراق المشهورين، كان جليسا للصاحب بن عباد، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة

(٣٩٣هـ). انظر: وفيات الأعيان (١/٥٢٤)، الأعلام (٦/٢٢٦).

(٣) انظر: الدارس (١/٧٥).

قيل: إن الصلاة تتضاعف فيه بثلاثين صلاة، وهو منقول عن العيني -رحمه الله تعالى-.

وعن يزيد بن مغيرة قال: أربعة جبال مقدسة بين يدي الله تعالى: جبل طور سيناء، وجبل طور زينا، وجبل طور تيما، وجبل طور تيئا،

فظور سيناء: الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام.

وطور تيما: مكة المشرفة.

وطور زينا: بيت المقدس .

وطور تيئا: مسجد دمشق.

وعن قتادة رضي الله عنه قال: أقسم الله تعالى بمساجد أربعة؛ فالتين؛ مسجد دمشق، والزيتون؛ مسجد بيت المقدس، وطور سنين؛ طور موسى عليه الصلاة والسلام الذي كلمه الله عليه، وهذا البلد الأمين؛ مكة شرفها الله تعالى.

وذكر جماعة من الأمويين أنهم أدركوا في مسجد دمشق تيئا.

قيل: وكانت في المواضع التي في الصحن بالبلاط الكبار المدورة كالرحا، وهو من بناء الملك الجليل الكبير الوليد بن عبد الملك بن مروان، ودولته كانت عشرة أعوام، وكان مهاباً شجاعاً، وكان الجامع نصفه كنيسة، ونصفه الآخر جامعاً، والذي فيه محراب الصحابة كان الجامع، فأرضى الوليد النصارى بعدة كنائس فرضوا، ثم هدمه، وحيطانه الأربعة، وأنشأ فيه القبة، والقناطر، وحلاه بالذهب، وجعل سلاسله منه، والأستار من الحرير، وبقي العمل فيه سبع سنين، وكان يعمل فيه اثنا عشر مرخماً، وغرم عليه من الدنانير المصرية مائة قنطار وأربعة وأربعين قنطاراً بالدمشقي، حتى صيره نزهة الدنيا، وأمر نائبه على المدينة المنورة ببناء مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وتوسعته وزخرفته، وهو ابن عمر بن عبد العزيز .

وقيل: أول من عمر جذر الجامع الأربعة: نبي الله هود عليه السلام.

وعن عمرو بن الدرفيس في تفسير ﴿والتين﴾ : أنه مسجد دمشق ؛ كان له حديقة فيها تين لهود معدودة لمن يمر، وكان فيه أبنية وخبايا للنصارى، فهدمه

المسلمون حتى العمارة، حتى صار مرجه، وفيه أبنية ومذابح، ثم شرع فى بنائه بفكرة جيدة، وجعل جدرانه كلها منقوشة بصفة سائر البلدان، صورها فى الجدران، ورتب شموعًا، واصطنع مجامر للنجوم على أعمدة، ووكل خدمة لذلك، وسبك سرجًا من نحاس، كل سراج يوضع فيه قنطار من الزيت.

وفى محراب الصحابة وضع حجرًا من البلور.

وقيل: درة يقوم نورها مكان المصباح، وأخذها الأمين ابن الرشيد لما طلبها، فسيرت إليه لبغداد.

وقال ابن عساكر: لما رآها ردها، ثم فقدت، وجعل مكانها برنية^(١) من زجاج.

قال: وقد رأيتها ثم انكسرت بعد مدة، وبنى الوليد المنارة المسماة بالعروس.

قلت: وما أحسن ما قال القاضى الحسينى ابن العدوى الصالحى:

قاسوا حماة بخلق فأجبتهم هذا قياس باطل وحياتكم

فعروس جامع خلق ما مثلها شتان بين عروسنا وحياتكم

وجعل عدة من المصابيح توقد كل ليلة، ورتب ثلاثة نوبات كل نوبة أربعون وهى إلى الآن، والقبتان من بناء اليونان للناقوس والرصد.

وقيل: إن الشرقية احترقت فى سنة سبعمائة وأربعين، فنقضت، وجددت من أموال النصارى، لكونهم اتهموا بحريقها، وأقر بعضهم بذلك .

ويقال فى الركنين الشماليين: صومعتان كالمقابلة فيها خلوتان من فوق الأعمدة، موضوع فيها كتب الأوقاف، ومقفل عليها بالحديد، وفيه طلسمات للحيات والحشرات والعقرب والخنافس والعناكب والدبان والعصافير والوطوات.

قال ابن عساكر: وقد ذهب من ملك الأرصاد انتهى.

أقول: ولعل بعضها يأتى؛ لأن أشياء من ذلك توجد إلى الآن، ولى فى تعليق هذه المشارب الكبار المدهونة المزخرفة، ولعلها كانت أكثر لكن ذهب الأكثر، لتوالى محن دمشق .

(١) برنية: إناء كبير . انظر : القاموس المحيط ، مادة [برن] .

وإنها موضوع فيها شيء من الرصد، وجعلت في هذا الموضوع حتى لا تنال بالأيدى ووقع له حريق من فنته بين الدولة في سنة أربعمئة ليلة النصف، ضربوا بارودًا على دار هناك مجاورة له، وأتى الحريق على سائرته ودرست محاسنه، نقله في الدارس^(١).

وفتنة التيمورلنك^(٢)، فإنه غيَّرت محاسنه وجعله مربوطًا لخيول بعض دولته، وله سبعة أبواب كبار وبابان صغيران؛ أبواب البريد، وأبواب جيرون، وباب الساعات؛ في حرمة قبلية، وسمى باب الساعات؛ لأنه كان عمل فيه مكانًا تُعلم منه أوقات النهار، وهي شيء عليه عصفير وحية من نحاس وغراب؛ فإذا تمت الساعة خرجت الحية فصفرت العصفير، وصاح الغراب وسقطت في كل مخصوص حصة، وهو من عمل الرئيس أبي الفضل الحارثي الدمشقي المهندس^(٣)، وكان ماهرًا في العلوم الرياضية، وبرع في علم الفلك، والحساب، والتقسيمات، والهندسة، وعلم الهيئة، ونقش الرخام، وضرب الخيط، واشتغل بالطب حتى مهر، سمع الملقى، وأخذ عنه الحديث، ووضع كتابًا في الحروب والسياسات والأدوية المفردة، ومقالة في رؤية الهلال، واختصر الأغاني، توفى في الخماسية.

وذكره ابن أبي الحنفية في تاريخ الأطباء: قال وكان مرضه بالإسهال كأفلاطون، ومات بدمشق، من الرؤساء بدمشق في العلوم الرياضية، وسكن دمشق لتحديد الساعات، وخيط الأوقات، وإدارة ساعة العنبرانية، وتحديد ما يفسد منها عند الخلل.

رضوان الخراساني^(٤) مولده بدمشق، وأبوه من خراسان.

(١) انظر: الدارس، للنعمي (٣٩/٢).

(٢) فتنة التيمورلنك، المراد: غزو المغول لبلاد المسلمين.

(٣) انظر ترجمته: معجم المؤلفين (٩٤٢/٢).

(٤) رضوان الخراساني، هو: ابن محمد بن علي بن رستم الساعاتي، طبيب، من الحكماء، فلكي، أديب، من آثاره: كتاب في معرفة الساعات وللعمل بها، توفى سنة (٦٢٠هـ).

انظر: عيون الأدباء (١٨٣/٢) معجم المؤلفين (٧٢١/١).

ومحمد القيسراني^(١): ومولده بعكا ، وله ديوان شعر، وهو فى عصر الأربعمائة، وسكن بجلب، ثم رجع للشام ،ومات فى الخماسية، وكان أمة فى الحساب والنجوم والهندسة والهيئة، وعلم المساحة، والميقات، والفلك، والإمام المتقن البارع أبو الحسن علاء الدين على ابن الشاطر^(٢) المشهور، وهو من الأوسى ينسب إلى ثابت الأنصارى الأوسى، صاحب الأسطرلاب، والبسيط الإمام المشهور، وكان له نظر على التوقيت بالجامع، وألف الزيج^(٣) والكرة، وله الرسالة عليها، وعلم الخيط فى المزاوول وتركيبها.

وأما الأسطرلاب: فهو قنطرة مقدار ثلث ذراع تدور أبداً على حركات الفلك على أوضاع مخصوصة ليعلم منها الساعات المستوية والزمانية والمنحرفتان فى قبلة منذنة العروس من وضعه والبسيط من وضعه فى الدور فوقانى من منذنة العروس يُعلم منه أوقات الرمال، وهذا مما لم يسبق إليه كالمزولة، ولكن المزولة لا تكفى فى ذلك، فجعل البسيط وهو إلى الآن، وكانت دائرة داخل الفرديس، ومولده فى عصر التسعمائة انتهى .

قلت: ومن المتأخرين الماهرين محمد الصالحى الهللى^(٤)، كان من البارعين فى علم الفلك وغيره، وله شعر جيد، وله زيج أكبر من زيج ابن الشاطر، ولكن زيج ابن الشاطر أشهر، وحضرت فى قراءة زيجه بقراءة الفاضل الشيخ محمد الحبال على الشيخ خليل شيخنا الموصلى، وقراءة رسالة الكرة له بقراءة صاحبنا الفاضل مولانا الشيخ إبراهيم الأكرمى^(٥) مع رفيقه الشيخ القاضى عبد الوهاب الصالحانى، وأيضاً عليه، وقرأت بالربيع للمجيب والمقنطر على محقق هذا الفن البارع يحيى جلى العينى الشافعى، وقرأت رسالة للدرجة عليه بتمامها والله الحمد.

(١) انظر ترجمته : الوافى ص ٩١ ، معجم المؤلفين (٣/٧٥٠) .

(٢) انظر ترجمته : شذرات الذهب (٦/٢٥٢) ، معجم المؤلفين (٢/٣٨٩) .

(٣) الزيج : كتاب منه يحسب سير الكواكب ، ومنه يستخرج التقويم أى حساب الكواكب سنة بسنة . انظر : مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٢٧ .

(٤) انظر ترجمته : معجم المؤلفين (٣/٣٥٧) .

(٥) إبراهيم الأكرمى، هو: ابن محمد، الصالحى، أحد الشعراء، الأديباء، من أثاره: ديوان شعر، توفى سنة (٧٠٤هـ). انظر: خلاصة الأثر (١/٣٩)، معجم المؤلفين (١/٢٥٨).

وكان مولانا بهى الدين الشيخ الحى الصالحى إمام السليمية فى زماننا، لم يكن أمهر منه فى مثل ذلك، وكان أمةً فى الحساب والفقہ والنحو والحديث، وكان عليه مشاركة تولية جامع السليمية فى الصالحيية مع الإمامة، وكان يقرأ الحديث للبخارى فى الأشهر الثلاثة، وتوفى بمكة سنة ست، وألف تاريخاً سماه [مذاكرة الذهب فى حال من ذهب]، وله رسالة بديعة فى تفسير آية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] استتبط فيها ذكر سائر الفرق المخالفة واعتقاداتها، أخذ بالشام عن المحدث ابن بلبان وغيره، وعبر عن أعلامها.

وقال فى الدارس^(١): بالجامع طلسمات لسائر الحشرات، معلقة بالجامع.

قلت: وهى إلى الآن، وإلى الأزل لا يوجد فيه العصفور، والزراغ، ولا البق، ولا البعوض، وفيه الفوارة أقيمت فى الثلاثمائة .

وقال الأمير جعفر الملقب بقمر الدولة الكنانى يصفها وأجاد:

رأيت بالجامع المزبور معجزةً فى جلق قد كست أحداً لها سمعاً
فوارها كلما فارت فرحت بها وماؤها فاض بالأنفاس فاتدفعاً
كانها الكعبة العظمى فكلُّ فتى من حيث قابل أبواباً لها ركعاً

وفوارة جيرون^(٢): فى عصر الأربعمئة خربت ليلة الجمعة لسبع خلون من ربيع الأول سنة أربعمئة، وماؤها من قصر حجاج قاله فى الدارس^(٣).

قلت: وفى سنة إحدى عشرة ومائة وألف جدد إنشاءها مفخر الكبراء بدمشق عبد المعطى جلبى الفلاقنسى، فحمامها عظيم وعمر على حساب مال الجامع من ماله حتى يبقى له وذلك زمن توليته، وكان قبله أطباق لصيقة الذهبية، وكان هناك سويقة خراباً تعد لبيع الثمين من العقيق مما يليق بالسَّناء، فلما خربت الذهبية فى سنة سبع ومائة وألف نودى على الطواقى التى كانت تلبسها النساء، وجدد موضع ذلك الحمام فى التاريخ السابق من ماله، وتحاسب به من مال

(١) انظر : الدارس (٧٩/٢) .

(٢) فوارة جيرون : انظر : معجم البلدان (٣١٦/٤) .

(٣) انظر : الدارس (٦٩/٢) .

الوقف، وجدد السوق خارج باب الفرديس، وكان دربه حوائيت الجامع المزبور، وقد أحسن في ذلك -رحمه الله-، وتوفى السيد عبد المعطى جابى المذكور سنة اثنين وعشرين ومائة وألف .

وأما المصاحف: فأكبرها بخط العلامة الحنبلى، للكافل بدمشق سودون، وكان على كسرى مقابل باب المقصورة الشمالى، ورتب قارئاً وخادماً بمعلوم، ويليه للمؤيد مثله مقابله على باب المقصورة.

وأما السلاسل على باب الجامع: فمن وضع السلطان العادل حتى لا تقمحه الخيول.

وفيه يقول القاضى ابن عنين الصالحى من قصيدة: والمدينة قيدها بالحديد

وإنَّ الجامع بلط بعد ثور^(١) بلاطه السابق المدهش؛ لأنه كان كله مفصصاً منقوشاً بأنواع عجيبة فى الستمائة، وفيها نصب محراب الحنابلة بالرواق الثالث من الحرم، وصلى فيه شيخ الإسلام موفق الدين بن قدامة، وتبعه الزكى المعظمى، ثم رفع فى السبعمائة، وعوضه بالغربى عند باب الزيادة كما عوضوا الحنفية عن محرابهم الذى كان فى الجانب الغربى بمحراب باب الزيادة بين محراب الحنابلة، والمقصورة حين جدد الحائط القبلى.

قال فى المدارس^(٢): وكان المحاريب ماعدا الراتب كلها فى الرواقات بالمعازب، وفى الثمانمائة رسم أن يصلوا الحنابلة قبل الإمام الكبير، لأنه كان يحصل تشويش فى الصلاة، وتغيرت هذه القاعدة فى التسعمائة .

قلت: والترتيب الآن يصلى الظهر والعصر الشافعى أولاً، ثم الحنفى، ثم المالكى فى المقصورة، ثم الحنبلى فى المحراب فى المعزية القبلىة التى تلى الباب القبلى أى؛ باب العنبرانية، والمغرب والعشاء لا يصلى إلا الراتب، والمالكى فى المقصورة، ويصلى الناس بأئمة حسبية، والمغرب والعشاء

(١) أى بعد زوال آثاره .

(٢) انظر : المدارس (١/٢١٥) .

وفى الصبح ؛ فأول ما يصلى الصبح اليمانية بغلس^(١)، ثم الشافعى، ثم المالكى، ثم الحنفى، ثم الحنبلى .

فالمالكى له أربع، والحنبلى ثلاث، والشافعى كذلك، والحنفى الخمسة ؛ فيصلى المالكى أربعاً، والحنفى الخمسة، والشافعى، والحنبلى ثلاث صلوات والله أعلم .

ولعلها منسوبة لمن كان باليمانية، وهو الرواق المشهور لا أنهم حنفية الآن بل شافعية، والغلس عند الشافعى أفضل.

وفيه المشاهد لكل واحد إمام:

المشهد الكمالى: لمولانا القاضى كمال الدين السهروردى، ويجلس فيه الحكام بعد صلاة الجمعة.

ومشهد المؤذنين: ويسمى مشهد عثمان.

وبعده مشهد النائب: وهو مشهد على، وفى كل منهما بركة ماء جارٍ.

ومشهد عروة: وهو الشرقى.

ومشهد زين العابدين، ومشهد الطواشية خدام الجامع كطواشية حرم النبى فى المدينة صلى الله عليه وسلم، ومشهد باب الزيادة، وهو خراب، ولعله المسمى مشهد المحيا، ومشهد الجرن، ويقال له: مشهد أبى بكر، وفُتِحَ فى الثمانية، ومشهد عثمان جدد فى السبعين والثمانية، والآخر فى القرن والثمانية.

قال فى المدارس^(٢): وفى الخمسمائة نقل من طبريا^(٣) مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى دمشق.

ذكره الذهبى فى تاريخ الشام قال: وأما بيع الكتب فلم يكن فى الكلاسة، بل بالبريد، ثم نقل إلى باب مئذنة العروس، ثم إلى داخل الكلاسة.

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل . انظر : القاموس المحيط ، مادة [غلس] .

(٢) انظر : المدارس (١/١٩٦) .

(٣) طبريا : بلدة من أعمال الأردن، تطل على بحيرة طبرية المعروفة، ويطل عليها جبل الطور . انظر : معجم البلدان (٤/١٩) .

قلت: وفي زمن ناصف باشا وزير دمشق نقل مصحفًا عثمانيًا كان في بصرى مسجد عتيق، وذلك لما كان تواجر حوران، فأمر بحمله إلى مسجد دمشق فحمل وجيء به للمقصورة، ورتب له خادمًا وهو إلى الآن، وذلك سنة ثلاث وعشرين وألف، وما أحسن ما فعل، واحترقت المئذنة الغربية في الثمانمائة من حرب حصلت، ثم جددت وفيها عمل درابزين لمئذنة العروس، ولما وقعت فتنة تيمورلنك عطلت وقوف الجامع، فطلبوا الإمرة، وصار فتنة فشكوا وقوف الحال.

فقال الأمير: اتركوا شهرًا وخذوا شهرًا، وفي فتنة الناصر كذلك، ولما ملك دمشق الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل كان وزيره ابن الدولة عبد السلام، فعمل طلسمًا للحمام -بالتخفيف- وصح فلا تدخله واحدة. قاله في الدارس^(١).

قلت: لعله خرب، ففي هذه الأعصار كثير فيه جدًا.

وأما الحمام: فلا يرى فيه وهذا من العجب وبطل.

قلت: وفي عصر المائة والألف ورد لدمشق الإمام الجليل الكبير الحافظ المحدث محمد بن سليمان المغربي، وكان إمامًا في العلوم العقلية، والنقلية، والهيئة، والهندسة، والفلك، والرصد؛ فأراد أن يرصد الزلقط، والدبور في دمشق لا يرى إلا فيها، وعمل تمثيله في كرات من رصاص، ثم جيء إليه ليكتب عليه، وكان ممرضًا بمرض الموت، وتوفي سنة، ولم يكمله، ودفن بالسفح من قاسون .

قلت: وقد عمل أبو البقاء الناصر الصالحى رصدًا للناموس بالصالحية بمحلته، ودخلته، وهى إلى الآن لا ترى، ولا يقرص أحد كذا أخبرنى من أدركه من القدماء، وذلك مشاهد.

وأحرقت الشرقية في السبعمائة، وأقامت ثمانية أشهر خرابًا، ثم تولى عمارتها الرشيد الصالحى نائب المملكة، وفي الثمانية رفعت جميع الخزانن،

(١) انظر : الدارس (٢٠٣/١) .

والصناديق من الجامع فى ولاية أياز الجراكسى، وكانت قريباً من ثلاثمائة خزانة ومقصورة، حتى وجدوا فيها قوارير البول، ووسع الجامع، ومنع كثيرون من المجاورين، وخرج على الجامع نحو عشرين ألفاً من المهندمين ترخمه، وجدد مشهد زين العابدين ابن على، وكان خراباً، ولم يبق من المجاورين سوى واحد، وكان لكل من المجاورين موضعاً مقدار دورة واقتطعه، وعمل فيه صندوقاً حتى صار فيهم كأنه خان، وأمر بتجديد باب البريد وبلطه، ونقل الشماعين^(١) إلى حوانيته التى فى الحائط، وكان قبل بها سوق الأكفانيين، وكان بالجامع حواصل كثيرة للأمرء وغيرهم من خيم وغيرها ودف، فأمر بإزالتها؛ فاتسع الجامع وزاد رونقه، هذا حين دخل الملك إسماعيل.

وأما الأسباع فكثيرة، وأما الأئمة فتسع، والسبع الكبير رجاله ثلاثمائة، وقيل: ثلاثون سبعا منها للحنابلة، والمالكية.

والكوثرية: بعد العصر تجاه المقصورة فيه أربعمئة وعشرون نفراً، وفيه ميعاد بالكلاسة للقاضى الفاضل.

والغزالية: وتعرف بالشيخ نصر المقدسى.

والأسدية، والمنجائية، والقوصية، والحنفية، والمقصورة الكبيرة عظيمة، والزاوية المالكية.

قال فى المدارس^(٢): ولاشك من مفارقات الدنيا، ومن ثم قيل: رابع حرم، وفيه أثر عن النبى ﷺ أنه رابع حرم، ومن أراد أن يطلع على فضل الشام، فيطالع (تاريخ الإسلام فى فضائل الشام) للحافظ الذهبى، وكان نقوشه الرخام الأبيض المختم بالأزرق وهو محلى فى سائره، وسقوفه مدهونة مزركشة، وتغيرت محاسن نقوشه، وفسدت أيام الحريق، وقصة التيمورلنك وغيرها، وكان فى دائرة نقوش سائر بلدان الدنيا كالهند والصين، وجميع الفواكه منقوشة بالفسيفساء الملونة، وهو شىء عجيب لم ير مثله.

(١) الشماعين، جمع الشماع: بائع الشمع. انظر: القاموس المحيط، مادة [شمع].

(٢) انظر: المدارس (٣٥/١).

قال ابن المزلق: وطوله مائتا خطوة وخمس وثلاثون، ويكبر بالمرجع
المغربى أربعة وعشرون مرجعاً، وهو يكبر مسجد النبى ﷺ، شمساتها
الزجاجية الملونة مع الثلاث الكبار التى فى المقصورة أربع وسبعون.

قال: وينعكس شعاع الشمس بألوان غريبة من الحائط كالأرجوانى، والأحمر،
والأصفر، والأخضر، والأزرق، والمحراب من عجائب الدنيا وفيه أعمدة صفاء،
ومحاريب صغار، نقشية مادية يحفها أسورة مفتولات بعضها أحمر، كأنه
مرجان.

قال: وفيه ثلاث مقاصير:

مقصورة معاوية: وضعه فى الأمام طولها أربع وأربعون شبراً، وعرضها
نصفها.

وفيه مقصورة: من جهة الشرق.

والثالثة: بالجانب الغربى يدرس بها الحنفية .

وله أربعة أبواب :

القبلى: وهو الزيادة.

والشمالى: للناطقيين، والبريد، وجيرون.

والمغربى: دهاليز متسعة تفضى إلى باب عظيم كانت كلها مداخل الكنيسة.

قال ابن جبير: وللجامع أربع سقايات فى كل جهة سقاية، وأعظمها باب
جيرون، مفروش بالبلاط بدرج عظيم، وبلاط عريض طويل، وهو خمسة أبواب
مقوسة، لها شيد أعمدة فى جهة اليسار مشهد كبير فيه رأس سيدنا يحيى عليه السلام،
وقد انتظم أمام البلاط درجة، وأنت داخل تتحدر عليها إلى الدهليز، وهى
كالخندق العظيم يتصل إلى باب عظيم الارتفاع، فى لحد الحديدية أعمدة كالنخل
الطوال، وكالأطواد طولاً وفخامة، وكانت على الدهليز أعمدة كانت عليه
شوارع مستديرة، بها حوائيت العطارين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة
مستديرة فيها الحجر والسوق، وفى وسطه الحوض وأنبوب مزعج بقوة فيرتفع،
أزيد عن قامته، وحوله أنابيب صغار، وعن يمين الخارج شبه غرفة، لها شبه
طاق كبير مستدير فيه طير من صفر فى فمه بازين من صفر قائمين على

طاستين من صفر متقوبتين، فتبصر البازين يمدان عنقيهما بالصفحتين إلى الطاستين، ويعيدان فاههما بسرعة، فتسمع لها دويًا، فيعودان من الأتقاب إلى داخل الجدار إلى الغرفة، ويغلق الباب المعين بلوح من صفر فلا يزال كذلك حتى تنتضى الساعات، فتغلق الأبواب كلها، ثم تعود إلى حالتها الأولى، ولها تدبير أحزان القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنا عشرة دائرة من نحاس مخرمة، في كل دائرة زجاجة، وخلف الزجاج مصباح يدور به، وتسمى الميقاتية على ترتيب مقدار الساعات، ولها مشارف انتهى.

وقلت: ومن عجائبه: أن أبوابه منها ما يدخل إليه بنزول، ومنها بطلوع.
الأول: كباب البريد.

والثاني: باب جيرون، وبقية الأبواب سوية، فتأمل.

وفيه: قبة النسر، وهي توازي الأطواد، وقبة صغيرة في الشرق، والأخرى في الغرب مصفحة بالرصاص، ولا يحصل فيه قمط فواد ولا سأم والله أعلم.
وبناه الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أن حرر حد خالد بن الوليد فرأوا حده خارجًا عن قنطر باب البريد بالمساحة بأربع أذرع، وكان الحصاة الشرقية منه بأيدي الكفار، ودفع لهم مالاً جزيلاً، فلم يمكن فحرزه، فحزر، فدخل الجامع كله في حد خالد ابن الوليد رضي الله عنه، وطالبهم ببعض كنائس، ثم هدمه ما سوى الجداران الأربعة وزخرفه.

قال البكري في تاريخه: بُويع له للنصف من شهر شوال سنة ست وثمانين من الهجرة، وهو ابن تسع وثلاثين، وتوفى يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخر لسنة ست وتسعين، وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، ولقب بالمستقيم بالله، وتم أمره بالخلافة، وهو الذي بنى الجامع، وأنفق عليه أموالاً عظيمة.

فقال: كان الذي أنفق عليه أربعمئة صندوق في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار.

وقال البكري: وسك الدنانير أزيد من دنانير السوق، وهدم رحمه الله الدور التي كانت بجوار النبي صلى الله عليه وسلم، وأدخلها في المسجد حتى صار طوله مائتي نراع وعرضه كذلك، وفي أيامه فتحت جزيرة الأندلس وبلاد الترك كلها وأكثر بلاد الهند.

قال البكري: وكان جباراً متعظماً؛ إلا أنه كان من محاسنه الكرم والنهي عن محارم الله تعالى، وروى عنه أنه قال: لولا أن الله تعالى ذكر آل لوط في القرآن ماظننت أن أحداً يفعل هذا، ثم مات في أثناء العمارة، فبقيت على يد أخيه سليمان بن عبد الملك بن مروان، ببيع له في جمادى الآخر سنة ست وتسعين، وهو ابن اثنتين وأربعين سنة، وتوفي لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين، وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر، وعمر داراً هائلة بقبة صفراء بدمشق بدرج محرز، فجعلها دار الخلافة لمعاوية، وكان شاباً فصيحاً متزهاً، مؤثراً العدل، محباً للغزو، ومولده سنة تسعين، وكان مليح الشكل، مقرون الحاجبين، يقرب شعره إلى منكبيه .

قال محمد بن سيرين: رحم الله سليمان بن عبد الملك افتتح الخلافة بإحيائه الصلاة لمواقبتها، وختمها بخلافة ابن عمه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ومن محاسنه كان رفيقاً بالرعية كثيراً جزاه الله خيراً.

ذكر ممالكها وبلادها ومالها من ترتيب الموابك السلطانية الخليفة:

قال في كوكب الملك: وهي تشتمل على سبع نيايات تجرى في الترتيب قريباً من ترتيب المملكة المصرية في المدن والبلاد والطريق وقلاع .

الأولى: المملكة الشامية وتقدم، وكان مواكبها موكب حلب أكبر منها؛ لأنها جناح الملك من الجهة الشرقية؛ إن أغلب الفتن من قبلها، ثم رفعت عليها دمشق لقوة عساكرها، وقربها من المملكة المصرية، وأنها قطب دائرة الممالك الشامية لامتداد الممالك منها، وتسمى جلق جيرون .

قال في الكواكب: بناها نوح عند نزوله من السفينة بعد بناء حران .

وقيل: بناها جيرون بن عاد، وقيل: جيرون وأخوه يزيد ابنا لقمان بن عاد.

وقيل: العاذر غلام إبراهيم عليه السلام وتقدم .

وهي مدينة حسنة الترتيب، جليلة الأبنية، وبها الجوامع والمساجد، والخوانق، والربط، والقواسير مالم يكن في غيرها.

وقال: في جانبها الغربي القلعة، وهي صنمية يحوط بها الخندق لتطويق الماء عند الضرورة، فإذا دعت الضرورة أطيف الماء حول خندقها وسورها، وبالميدان القصر الأبلق المبني بالحجر الأسود والأصفر بتأليف غريب، بناه الملك الظاهر بيبرس، ومثله! القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر المحروسة.

قال: وإلى جانبيها مدينة تسمى الصالحية، يسكنها كثير من الأمراء، والجند، تشرف على دمشق كلها وعلى غوطتها، ولها الأنهار السبعة المتسلطة عليها؛ منها أنهار شريقيات، والخمسة غربية.

يقال: أنفق في جامها أربعمائه صندوق كما تقدم؛ كل صندوق ثمانية وعشرون ألفاً وتقدم في تاريخ العسكرى أربعة عشر ألفاً؛ فحملها على ذلك أحد عشر ألف دينار ومائتي ألف دينار.

وقيل: خراج الشام سنة.

قال: ولم تزل زاهية العين والبنان، كاملة المحاسن، إلى أن طرقها التيمورلنك في سنة ثلاث وثمانمائة، فحرق جميع ما في داخل السور، ونهب غالب أموالها، وأسر جماعة منها، ولم يبق بها عامراً سوى ظاهرها.

وفي نيابتها:

الأول: وهو أن نيابة دمشق الآن هي أجلّ النيابات في الأقطار الشامية، ومقام نائبها في الممالك مقام الكافل بمصر، ويعبر عنه بكافل السلطنة الشريفة، وتقليده من أعظم التقاليد، ويكتب عنه أكبر الوظائف، تجهز لها الأبواب الشريفة، وللنائب من الحاشية مثل مالمسلطان غالباً من الدودارية والخزانديرة، وأمير مجلس، وأمير، وأمير آخوردشار الشربجات ومهاترة^(١) السوق، وغيرهم من الغلمان، تشتمل على خيول خامة، ورأس طولها بالذهب، وبغال، وأكاديش^(٢)، ونجاتي وجمال تجهز للسلطنة، وأقمشة، ومماليك كذلك مما يكون قيمته عشرة آلاف دينار.

وبدمشق: نائب قلعة منفرداً عن نائبها.

قال في الكواكب: وكان نائبها في القديم مقدم ألف، ثم استقر طبل خاناه إلى الآن.

قلت: وفي قوانين بني عثمان الآن لا يكون طبل خاناه، وعادة نائبها أنه لا يسلم مفاتيحها إلا لمن يتولاها مكانه يداً بيد، أو من يأمر له السلطان بتسليمها

(١) مهاترة: جمع مهتار: لفظ فارس يلقب به كبير كل طائفة من غلمان البيوت. انظر: معجم الألفاظ التاريخية ص ١٤٦.

(٢) الإكاديش؛ جمع إكيش: الحصان لهجين الأعجمي. انظر معجم الألفاظ التاريخية ص ١٩.

منه، وللقلة أجناد يلبسون بها لأمر طارىء، ولا يحضر دار النيابة، وبالمدينة ثمانية أمراء:

أحدهم: الأمير الكبير، وجُعِلَ ذلك علمًا عليه، وإليه الخطاب من النائب، ويشاركه في رأى المهمات الشريفة.

قال: وغالبًا يكون مكان النائب عند غيبته انتهى.

قلت: وهذا الوجه بطل في قانون بنى عثمان؛ فإن النائب ينوب عنه من أراد، وهم المعبر عنهم فى دولة بنى عثمان الأيباشية، ولهم فى قانون بنى عثمان ليس الرئيس الكبير فى أيام المواكب وملاقاء الوزراء، وعليهم سفر سوى الأمير الكبير منهم، وذلك إلى الآن والله أعلم.

وبها من أمراء الطبل خاتاه: واحد وعشرون أميرًا، ومن القزاوت واحد وخمسون أميرًا.

ومن الخمسات: ثلاثة وعشرون أميرًا، وطائفة تسمى جند الحلقة، ولعل الآن موضعهم الزعماء، بدمشق أى: الينكجيرية، ولهم رؤساء، وبها صاحب الحجاب، ومن عادته الجلوس بدار العدل، وإذا غاب النائب ولم يستتب الأمير الكبير، فيكون هو نائبًا عنه إلى أن يعود، وإذا أبرز أمر من السلطان بقبض أحد من الكبار وكان؛ كان هو المتصدى، وبها فى القانون القديم ستة حجاب، وولايتهم من الأبواب المرتبة، وبطل ذلك فى دولة بنى عثمان، وبها استدار كمال السلطنة، وهو المستخدم على الغور وفرامى الشريف فيصرف من المتحصل ما يستحق صرفه، والباقى يرسله للخزائن السلطانية، واستقراره للشريف من الحضرة الشريفة، وبها تقيب الجيش على طريقة نقيب الجيوش بالأبواب الشريفة.

قلت: لعلم الآن الجاويشية وبها المهندار بالأبواب الشريفة وأمير أخور الشيزيدار، وبها شاد الدواوين، وشاد المهمات وقد بطلوا، وبها والى الشرطة، يحكم بها بموجب القصاص والجنایات.

وبها من أرباب المناصب الدينية الأربعة قضاة، وكان أمثلهم القاضى الشافعى، وفى دولة الأروام أمثلهم الحنفى، وكان استقرارهم من الأبواب المرتبة تشاريف وتفاوت. .

قلت: الآن ذلك لا يكون إلا للحنفى، وترتبه من النائب، بها فروة من السمور وذلك إلى الآن .

وبها أنشأ دار العدل شافعى وحنفى، واستقرار هما للتشريف وتوقيع من الأبواب الشريفة.

قلت: الآن لا توقيع أى: للحنفى وهو المفتى فى دار العدل، ويحضر مع المدرسين وقت الديوان دون غيره،

وبها وكيل بيت المال كذلك، وبها نقابة الأشراف وولاية صاحبها من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف، وبها شيخ الشيوخ، وهى من الوظائف الجليلة كالنقابة.

قلت: وهذه لا أثر لها الآن، وبها من أرباب الوظائف الديوانية كاتم السر، تقارب كاتم سر الملك، وهو للتشريف، وله أتباع، وبهم كتاب الدست، وكتاب الدرج بالمملكة الشامية، ولايتهم من الأبواب الشريفة، وبها نظر خزائن السلاح ووظيفة جليلة تتحدث على ما يشتمل من السلاح للخزائن الشريفة للقلعة بدمشق، وكان بها نظر المهمات، ونظر الخزنة، ونظر السيوف ونظر مراكزهم، والسريد، وقد ذكرت مصطلح هذه الوظائف فى [حدائق الياسمين فى ذكر (قوانين الخلفاء والسلاطين)] والله تعالى أعلم .

وبها خزانة الطب وجراح باشا، وحكيم باشا وشرطه أن يكون مسلماً، وهو إلى الآن.

المقصد الثامى: فيما هو خارج عن محازاتها من المدن، والقلاع، والقرى، والضياح، ويشتمل على بر وأربع صفقات .

أما برها: فالمراد نواحيها.

وأما صفقاتها فأربع : الساحلية، والجبلية، وهى بلاد غزة وما جاورها، ولها ناحيتان:

الأولى: الساحلية، وهى التى بساحل بحر الروم، ويشتمل على أربعة أعمال:
الأول: غزة.

الثانى: الرملة، وفيه عمل يافا.

الثالث: عمل اللد.

والرابع: عمل قاقون^(١).

(١) قاقون : حصن بفسطين قرب مدينة الرملة . انظر : معجم البلدان (٤/٣٣٩).

الناحية الثانية من الصفقة الأولى: الجبلية، وبها ثلاثة أعمال .

عمل القدس: وهو القبط، غلب على مدينة القدس، وهى ذات المسجد ((الأقصى أحد المساجد التى تُشد إليها الرحال))، وأصل التقديس التطهير، والمراد المطهر من الأذناس.

وبها المدارس، والربط، والحمامات، والأسواق والعمائر، وشرب أهلها من ماء عين سلوان.

الثانى من الصفقة الجبلية: عمل بلد الخليل الغليل، وأسمها بيت جبرون، وبها قبور الأنبياء؛ إبراهيم، ويعقوب، وإسحاق، ونسأهم عليهم السلام.

الثالث: عمل نابلس^(١)، وهى مدينة من جند الأردن.

قاله مالك الأنصار: بها البئر التى صفرها يعقوب الغليل، وكانت قديماً للسامرة، والعمل لجبل الطور نابلس الذى يحجون إليه .

الصفقة الثانية من صفقات دمشق القبلية، ويشتمل على عشرة أعمال.

الأول: عمل بيسان.

الثانى: عمل بانياس، وبه قلعة المصيبة.

الثالث: عمل المقرىء.

الرابع: عمل نوى.

الخامس: عمل أنرعات، ويقال: تدرعات.

السادس: عجلون وهى قلعة من جند الأردن مبنية على جبل عوف، تشرف على الغور محدثة فى سلطنة العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة ثمان وخمسين وخمسائة، وكان بها راهب، يقال له: عجلون؛ فسميت به، ومدينته هذه عمل الباعونة التابعة لعمل البلقاء .

قال فى الروض المعطار: سميت بالبلقاء بن سوربة من بنى عبدة من لوط الغليل.

(١) نابلس : مدينة مشهورة بفلسطين تقع بين جبليين ، وهى كثيرة المياه . انظر : معجم البلدان (٥/٢٨٨) .

الثامن^(١): عمل رخد، وكان بها قلعة عظيمة، وبها ملك عظيم، فلما خرج هولكو على البلاد هدمها، ثم حددها الملك الظاهر ببيرس، وممن وليها العادل بعد خلعه من سلطنه.

التاسع: عمل بصرى، وبه قلعة، وكانت دار الملك ابن أيوب، وبها وجد النبي ﷺ بحيرى الراهب عند سفره إلى الشام بمتجرة لخديجة رضى الله عنها، فبشر بمبعث النبي ﷺ حين رآه، وقبر بحيرى الراهب بها مشهور.

والعاشر: عمل أذرع.

قال فى التعريف: وقد يتصل عمل بصرى بأذرع.

الصفقة الثالثة الشمالية: وهى ساحلية وجبلية، وتشتمل على خمسة أعمال: الأولى: بعلبك وهى مدينة عظيمة بناها نبي الله سليمان ﷺ بن داود ﷺ مختصرة من مدينة دمشق فى كمال محاسنها وغزارة المياه، وهى جارية فى دورها وأسواقها .

وبها مدارس، وخوانق، ومرابط، وأسواق، وحمامات، وكانت دار ملوك بنى أيوب؛ أبو الملوك الأيوبية، وبها قلعة عظيمة البناء وبظاهرها جبل لبنان المعروف بعش الأولياء من عمل البقاع البعلبكي منسوب إلى بعلبك .

الثالث^(٢): عمل البقاع العزيزى نسبة إلى العزيز بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومقر الولاية به الكرك؛ أى: كرك نوح ﷺ.

الرابع: عمل بيروت، وهى مدينة بابل دمشق الشام على حافة البحر الرومى، وبه جبل به معدن الحديد، وبها غوطة من أشجار الصنوبر، وسعتها اثنا عشر ميلاً، وبها الموز، وزهر الفل الطيب الرائحة، ويأتى الموز منها إلى دمشق، وترابها يميل إلى الاصفرار شديد ذلك، وبها قبر الإمام الأوزاعى شرقها - رحمه الله تعالى -، وبها حمام عظيم وهى فرصة دمشق، ولها بناء قلعة.

الخامس: عمل صيدا بساحل البحر الرومى بناها صيدا بن كنعان بن دامر ابن نوح ﷺ. وقيل: امرأة فسميت بها، وقراها تشتمل على ألف وثمانية ضيعة قاله فى الكواكب.

(١) لم يذكر السابع، هكذا فى المخطوط .

(٢) ولم يذكر الثانى، هكذا فى المخطوط .

وقال الصفة الرابعة الشرقية : وتشتمل على ستة أعمال .

الأولى: عمل حمص، وهي مدينة عظيمة بناها رجل من العمالقة يسمى حمص، واسمها القديم سوريا، وشرب أهلها من نهر العاصي، ولم يكن في البلاد الشامية أصح من هواها، وبها بحيرة صافية الماء، ولا يكون بها عقارب ولا حيات، وكان بها دار أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين بن أيوب سقى الله عهدده، وبها قبر السيد خالد بن الوليد الصحابي رضى الله تعالى عنه.

ويقال: إن قبر سقراط الحكيم بها، وإن أهلها أول من ابتدع علم الحساب الجارى بين الناس الآن .

الثاني: مصياب وهي قلعة حصينة في لحف جبل بلاد للدعوى، مقره الندوية، وكانت من أعمال طرابلس، ثم أضيفت إلى دمشق، ولا يسكن بها إلا أهلها .

الثالث: عمل قارا، وتكتب قارة بالألف والهاء تنزلها قوافل السفارة للأمن، وغالب أهلها نصارى .

الرابع: عمل المسلمية، وهي من أعظم عمل حمص، بناها أحمد الكاتب لعبد الله بن صالح بن علي بن عباس ابن عبد المطلب، أسكن بها ولده، وهي كثيرة الأشجار والفواكه .

الخامس: عمل تدمر وهي من أعمال حمص، وغالب أرضها سباخ.

قال في الروض المعطار: بنتها الجن لسليمان عليه السلام، وسميت بتدمر بنت حسان بن أرنبة، وفيها قبرها، وسكنها سليمان نبي الله عليه السلام بعدها.

قال في آثار العباد والبلاد^(١): أبنيتها من أعجب البناء، موضوعة على أعمد الرخام، زعموا أنه ابتنتها الجن لسليمان عليه السلام.

قال النابغة الذبياني^(٢):

إلا سليمان قد قال إلا له له قم بالبرية فاحذنها عن القيد
وحبس الجن إني قد أمرتهم بينون تدمر بالصفايح والعمد

(١) انظر : آثار العباد (٢١٩/١) .

(٢) النابغة الذبياني ، وهو : زياد بن معاوية بن ضباب ، الغطفاني ، أبو إمامة ، شاعر جاهلي ، أحد الأشراف ، كان خطيباً عند النعمان بن المنذر . من آثاره : دواوين شعر . توفي سنة (١٨٠ هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء (٥٥/٣) .

حكى إسماعيل بن محمد المقرئ قال: كنت مع مروان بن محمد آخر ملوك بني مروان الأموي حين هدم حائط تدمر، فأفضى الهدم إلى جرن عظيم، فكشفوا عنه صخرة؛ فإذا بيت مجصص كأن اليد قد رفعت منه الآن، وإذا سرير عليه امرأة مستلقية على ظهرها عليها سبعون حلة ولها عذار مشدود بخلخالها.

قال: وكانت قدمها نراعًا من غير الأصابع وفي بعض عذائرها صفحة ذهب فيها مكتوب... باسمك اللهم، أنا تدمر بنت حسان أدخل الله الذل على من يدخل علي، فأمر مروان بالجرن فأعيد كما كان، ولم يأخذ شيئاً من حليها.

قال: فوالله ما مكتنا بعد ذلك أياماً حتى أقبل عبد الله بن علي العباسي، وفرق جيش ابن مروان، وأزال الملك عن بني أمية، وبها تصاوير كثيرة.

السادس: عمل الرحبية أول من عمرها مالك بن طوق، وكان من قواد هارون الرشيد؛ فنسبت إليه، وخربت، واستجدها شيركوه صاحب حمص الرحبية الجديدة التي هي الآن عامرة، وبها قلعة على تل من تراب، وهي الآن أحد الثغور الإسلامية، وبها قلعة البنامية، وبها بحيرة وطوائف.

المقصد الثالث: في أرباب الأمور، وهي على أربعة أنواع:

الأول: النيابة وهي ثلاث طبقات.

الأولى: نيابة غزة.

قال القزويني: مدينة طيبة بين الشام ومصر على طرف رمال مصر.

قال عليه الصلاة والسلام: ((أبشركم بالعروسين: غزة وعسقلان)).

قد افتتحها معاوية بن أبي سفيان زمن عمر رضى الله تعالى عنه، دولة الإمام الشافعي، ولد بها سنة خمسين ومائة، وكان رحمه الله تعالى يجعل الليل أثلاثاً؛ ثلثاً لتحصيل العلم، وثلثاً للعبادة، وثلثاً للنوم، ولها حالات.

الأولى: أن تكون نيابة؛ فيكون حكمها على الساحل والجبل، وواليها وقضاتها، ولايتها من الأبواب الشريفة بتشاريف وتواقيع.

الحالة الثانية: أن تكون تقدمة عكا، فله الساحلية فقط.

ويقال له: مقدم العسكر بغزة المحروسة، ولايته من الأبواب أيضًا، وبها حاجبان الأول: طبل خاناه، وبها من أرباب المناصب الدينية؛ القضاة الأربعة، وبها المحتسب ووكيل بيت المال، وبها كاتب درج، ويسمى صاحب ديوان المكاتبات بغزة، وولايته من الأبواب، وربما يحتمل تشريفًا من الحضرة الشريفة.

الطبقة الثانية: نيابة القدس الشريف من الصفقة الثانية، وكانت قديمًا نيابة صغيرة، ويولاها نائب الشام، ثم استقرت طبل خاناه سنة سبع وستين وسبعمائة. قاله في التتقيف، وكان يضاف إليها نظر المقدس، والنظر على مقام الخليل عليه السلام، ويمتد عنه بنظر الحرمين، ثم انفرد النائب عن النظارة، وكان بها ولاية القلعة من نائب الشام، وبها أربعة قضاة وولايتهم من الأبواب، وبها محتسب وولايته من نائبها، وبها نيابة، وبها نيابة جديدة من الصفقة القبلية ويولاها نائب الشام، وبها نيابات بعلبك من الصفقة الشمالية إمرة عشرة، والآن طبل خاناه، وولايتها من نائب الشام.

واعلم أن القدس: هي المدينة المشهورة محل الأنبياء، بناها نبي الله داود عليه السلام، وفرغ منها سليمان نبي الله عليه السلام بأمر من الله.

فقال: يارب أين؟

قال: حيث ترى السيف مصلتا، فرأى داود ملكا على الصخرة بيده سيوف بها هناك، وعمل سليمان عليه السلام أثارًا؛ منها قبة، معلق بها سلسلة منالها اليمن لا المبطل حتى إنها اضمحلت، وبنى بيتًا وأحكمه؛ فإذا دخل الورع والفاجر كان خيال الورع في الحائط أبيض، والفاجر أسود.

ومنها نصب في زاوية عصا أنوس إن مر وعلم أنه من ولد الأنبياء لم تضره، وإلا أحرقت، ثم ضرب الدهر بها، واستولت عليها الجبابرة، فخربوها فاجتاز بها العزيز عليه السلام فرآها خاوية على عروشها.

فقال: ﴿أَنْتَ يُحْيِي هَذِهِ لِلَّهِ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وعمر بها ملك من ملوك الفرس، يقال له: كوشك، فعمرها، وجعل في جبالها زرعها على أطراف الجبال وقطعها بالفتوس؛ لأن للدواب لا تعمل بها؛ لأن أرضها كلها حجر. وشرب أرضها من ماء للمطر غالبًا، ودورها حجرية، لكن مياهها ردية. وفيها ثلاث برك؛ بركة بنى إسرائيل، وبركة سليمان عليه السلام، وبركة عياض.

قال فى [أخبار بلدان الإسلام]: الإمام محمد بن أحمد البشارى المقدسى^(١):
إنها متوسطة الحر والبرد، فلم يبق فيها الثلج ولا أحسن من بنائها ولا أنزه من
مساجدها، قد جمع الله فيها فواكه الغور والسهل والجبل والأشياء المتضادة ؛
كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز.

قال: وإن لها عيوبًا، ما ذكر فى التوراة أنها طست من ذهب مملوء عقارب،
ثم لا ترى أفقر من حماماتها، ولا أقبح مونه، وبها خرائب بيال على ما يباع
فيها، وليس لمظلوم بها ناصر، ولا أذان بها إلا بالمسجد الأقصى.
وقال عليه السلام: ((لا تُشدُّ الرحال إلا لثلاث ؛ المسجد الحرام، والمسجد
الأقصى ومسجدى هذا))^(٢).

وهو فى طرف الشرق من المدينة منذ آمد من عمل داود، طول كل حجرة
عشر أذرع، فى قبلته حجر أبيض مكتوب بالقدرة محمد رسول الله خلقه لم
يكتبه أحد، وطول المسجد أكبر من عرضه، وفى وسطه الصخرة، وفيها قدم
النبي ﷺ، وتحتها مغارة، ولقبة الأقصى أربعة أبواب، وفى شرقها خارج القبة
قبة أخرى على أعمدة حسنة.

قيل: إنها قبة السلسلة، وقبة المعراج، وكذلك قبة النبي ﷺ، كل ذلك على
أعمدة مطبقة بالرصاص.

قيل: إن قبة الصخرة كان طولها اثنى عشر ميلاً فى السماء، وكان فى رأسها
ياقوتة حمراء فى حقها كانت ترى منها البلقاء.

وبها محراب مريم عليها السلام، التى كانت تأتى فيه إلى مريم الملائكة
بفاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء بالصيف، وبها محراب نبي الله زكريا
عليه الصلاة والسلام .

(١) محمد بن أحمد البشارى، هو: ابن أبى بكر البناء المقدسى، شمس الدين، أبو عبد الله،
أحد المؤرخين الرحالة، جغرافى، من آثاره: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . توفى
سنة (٣٧٥هـ). انظر: الأعلام (٢٠٣/٦)، معجم المؤلفين (٥٢/٣).

(٢) الحديث أخرجه الترمذى، كتاب الصلاة (٣٢٦) والإمام أحمد فى مسنده (٧/٣).

وأما المسجد فطولُه : سبعمائة ذراع وأربع وثمانون ذراعاً، وعرضه أربعمائة وخمس وثمانون ذراعاً، وعدة ما فيه من العُمد ستمائة وأربعة وثمانون، وسقف المسجد أربعة آلاف خشبية، ويُسْرَج فيه ألف وستمائة قنديل، وأربعمائة وارية، وستون قنديلاً، وكان له من الخدام مائتان وثلاثون مملوكاً أقامهم ابن مروان، ورزقهم من بيت المال، وبها عين سلوان تتبرك بها الناس، وفيها عمان رضي الله عنه على ضعفا بيت المقدس .

قيل : إن شاربها يفيد سلو الحزن، ولذا رويت :

لو أشرب السلوان ما سليت

الصفقة الثالثة : جُمِعْنَ من المصفقة الشرقية وهي بطبل خاناه، ولايتها من الأبواب الشرقية .

قال القزويني : هي مدينة بالشام حصينة أصح بلاد الشام هواءً وتربة، كثيرة المياه والأشجار، ولا يلدغ بها عقرب ولا حية، ولو غسل ثوب بماء حمص لا يقرب لابسه عقرب حتى يغسل بماء آخر، وأهلها موصوفون بالجمال المفرط، والبلاغة، ورصد العقرب والحية مصور على باب المسجد، وهي صورة حية في الأعلى، والأسفل صورة عقرب، وبها قبر خالد بن الوليد -رضى الله تعالى عنه .

الطبقة الرابعة : الرابعة؛ نيابة الصراة من الصفقة القبلية، وكانت لنائب الشام، وهي بطبل خاناه إلى الآن، وولايتها من الأبواب الشريفة، وبها نيابة مصياب من الصفقة الشرقية، وكانت من مضافات طرابلس ثم استقرت في معاملة دمشق، وهي بطبلخانة، ولايته من الأبواب المتولى، الثاني الكشاف بها كاشف القبلية، ومحلة أذرعان، الثاني كاشف الرملية من الغربية، وكان مولى من قِبَل نائب الشام .

النوع الثالث : الولايات؛ وهي ثلاث طبقات :

الأولى : نيابة نابلس من الصفقة الغربية، وأمراؤها أمراء عشرين، وهي من الأبواب، وطبلخانة في هذه الآن .

الثانية : ولاية بيروت من الصفقة الشمالية، وولايتها قديماً من قبل نائب الشام بأمر صغير، والآن من قبل نائب صيدا وقاضيها من الروم .

الثالثة : صيدا، وكان نائبها من قبل نائب دمشق الشام، وهى من الصفقة الشمالية، والآن من قبل الروم وقاضيها كذلك، وكانت لهذه الطبقة ولاية الرملة من قبل الشام، وولاية قاقون وولاية الخليل عليه السلام، مضافة إلى نيابة القدس، وكانت القدس من قبل، ثم استقرت طبلخانة سنة سبع وستين وسبعمائة، وكانت امرة غزة، وولاية القرى منها، وكانت مضافة إليها، ثم أفردت عنها وولاية حسان والصلت منها، وولاية البقاع البعلبكي والعزيزى من الشمالية وهما لمتول واحد، وولاية قارة وهى من العقبة الشمالية، وولاية تدمر منها.

وهذه البلاد جميع ولاياتهم من الشام، خلا قاقون والصلت؛ فإنهما من الأبواب.

قلت : بل الآن من نائب الشام، وولاية تلية الصبية منها، وهى الآن طبلخانة. قلت : والآن من قبل الشام ولا وكيل لها، وهى الآن طبلخانة بصفد، وولايتها من الأبواب الشريفة مهمة هذا الكتف، وجميع الولايات قد تنتقل فى المراتب عما هى عليه بزيادة ونقص .

النوع الرابع : أمر العربان الداخلين فى نطاق أعمال الشام، وهم سبع قبائل؛ آل ربيعة من طيء من القحطانية، وكان لربيعة أربعة أولاد، وهم : فضل، ومرا، وثابت، وذو عقل، وقيل : خامس يسمى بدرًا .

قال فى مسالك الأبصار : ولم تزل عند الملوك له المكانة العلية .

والإمرة فى ثلاثة بطون :

البطن الأول : آل فضل رأس الكل، وهم شعب كثيرة، وأسعد بيت منهم آل عيسى؛ يعنى محمد بن الفضل، وأولاد عيسى لهم ملوك فما بعد أو قرب، ومنازلهم من حمص وإلى قلعة جعبر، وإلى الرحبية أخذنا على شفة الفرات، وأطراف الفرات إلى يسار البصرة، ولهم مياه كثيرة، ومنازل معدودة، ولم يصرح لهم بإمرة العربان إلا زمن العادل إلى مكرات أيوب، وأن أمر آل فضل لبس فوق جميع العربان.

وتشريفة أطلسين ومركوبه من الإسطبلات الشريفة؛ فرس خاص بسرج من ذهب أسوة النواب الكبار، ويقيّد راكبه الكاتبان من الأبواب الشريفة إلا أنه لا يكتب تقليدًا ولا مرسومًا شريفًا .

البطن الثاني : آل مُر بن ربيعة ومنازلهم حوران، قال فى المسالك : وآل مُرا أبطال مياجيد، ورجال صناديد، والإمرة فيهم قريبًا مما تقدم .

قال الشيخ أبو البقاء محمود الحلبي رحمه الله تعالى قال : كنت فى نوبة حمص فى مرافقة البقاء جالسًا على سطح باب الإسطبل السلطاني، إذ أقبل آل مُرا منها أربعة ألف فارس، شاكلين فى السلاح على الخيل الموسمة والجياد المطهمة^(١)، وعليهم الكر عقديات الحمر الأطلس المعدنى، والديباج الرومى، وعلى رؤسهم البيض مقلدين بالسيوف، وبأيديهم الرماح كأنهم صقور على صقور، وأمامهم العبيد تميل على الركائب، ويرقصون بتراقص المهادى، وبأيديهم الجنائب التى لها عيون الملوك نواظر، ووراءهم القطائف، والحمول، ومنهم مغنية تُعرف بالحضرمية، طائرة السمعة، سافرة من الهودج، وهى تغنى، وحفظت منها .

قول الشاعر :

وكنّا حسبنا كلُّ بيضاء شحمة	لبالب لاقتنا حذامًا ومُرا
ولما لقينا مضية تغلبية	يقودُ وزمردُ للمنية ضمُرا
فلما فرغنا التبر بالتبع بعضه	ببعض أبث عقده أن تكسُرا
سقيناهم كأسنا سقونا بمثله	ولكنهم كانوا على الموت أجبرًا

قال : وكان الأمر كذلك، فإن السكره كانت أولاً عفا المسلمين على المسار، فسبحان منطق الألسن، ومصرف الأقدار، نقله الجنانى فى تاريخه .

البطن الثالث : آل على بن حذيفة بن فضل المتقدم، وديارهم مرج دمشق، وغوطتها بين إخوتهم آل فضل، وهى عمهم آل مُرا ذات أحوال جمّة، ومكانة فى الدولة العلية والإمرة لم تزل فى زمن جدهم محمد بن أبى بكر من أيام

(١) المطهمة : السمينة القوية . انظر : القاموس المحيط، مادة [طهم] .

المنصور، ومنهم بنو حزم من طيئ، ومنازلهم بلاد غزة إلى بلاد الخليل، ومنهم تغلبية من طيئ، وأراضهم جهات غزة .

ومن القبائل الطائفة : بنو فهدي .

قال في مسالك الأبصار: وهم من طريق، وطريق من حدام، ومنازلهم البلقاء من قديد إلى حيان، والصلت .

ومن القبائل: زبيد وهم فرق شتى، منهم فرقة بالغوطة، وفرقة بمصر .

قال : وزبيد أقسام؛ زبيد المرج، وزبيد حوران، وزبيد الأجلق؛ فزبيد المرج الغوطة، وزبيد حوران صرغد، وزبيد الأجلق ديارهم بالقرب من الرمة وبحوران آل فضل، وكان لهم أمير فبطل، ومن القبائل؛ بنو خالد : وهم عرب حمص .

قال الحمداي : وهم يدعون النسب لخالد بن الوليد ﷺ .

قال في آثار العباد^(١) : حوران قرية من قرى دمشق .

قيل : إنها قرية أصحاب الأخدود، بها نسبة لقاضي نجران ينذر لها المسلمون والنصارى، وليست نجران التي من مخاليف اليمن، فبناها ابن سبأ نجران بن يشخب؛ قال صلى الله عليه وسلم : «القرى المحفوظة أربع : مكة والمدينة وإيلياء ونجران، وما من ليلة إلا وينزل على نجران سبعون ألف ملك يسلمون على أصحاب الأخدود»، وفي كلامه نظر .

ينسب إليها عبد الله بن العامر شهيد نجران، وكانوا أهل ترك، وله قصة .

قيل : إنه أخرج في زمن عمر ﷺ، وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل، وأجمع أهل العلم على انقراض نسب خالد ولا أمر لهم، ومن القبائل نجرنة، وقد عدهم في التعريف من جملة عرب الشام من العد ثمانين .

قال في المعبر : ولم تزل لهم صولة، والغالب عليهم عدم الطاعة، ومقرهم أرض الشام .

(١) انظر : آثار العباد، للزويني ص ١٨٥ .